

كتاب
الجواب الكافي
لما سأل عن الزواجر الشافعي

تأليف
الشيخ
العلامة
الفاضل
الشيخ
العلامة
الفاضل
الشيخ
العلامة
الفاضل
الشيخ
العلامة
الفاضل

كتاب
الجواب الكافي
لمن سأل عن الدواء الشافي

بإجازة الإمام شيخ الإسلام علم العلماء الأعلام
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الواسطي الشهير
أبي قاسم الهروي سنة الفتح
سنة ٧٥١ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواءِ المشافي

للعلامة الإمام شيخ الاسلام علم العلماء الأعلام
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر
بابن قيم الجوزية المتوفى
سنة ٧٥١ هجرية

يطلب من

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر عرف (بأبي القيم الجوزية) رضى الله عنه ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين في رجل ابتلى ببلية وعلم انها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد الا توقفاً وشدة فما الحيلة في دفعها وما الطريق الى كشفها فرحم الله من أعان مبتلى والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه أقونا ماجورين

بسم الله الرحمن الرحيم
احاريسه

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال الجواب الحمد لله (أما بعد) فقد ثبت في صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء فاذا أصيب دواء برأ باذن الله وفي مسند الامام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهه من وجهه وفي لفظ إن الله لم يضع داء الا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً قالوا يارسول الله ما هو قال الهرم قال الترمذى هذا حديث صحيح وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروي أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال خرجنا في سفر فاصاب رجلا منا حجر فشججه في رأسه ثم احتلم فسألنا أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة في التيمم قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال اللهم قلتم لله الا سألو اذ لم تعلموا فانما شفاء الي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويصبر أو يغسل يديه على جرحه بخرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده فاخبر أن الجهل داء وإن شفاءه سؤال وقد أخبر سبحانه عن القرآن انه شفاء فقال الله تعالى ولو جهللتهم لولا انزلنا القرآن لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وطمأنينة وقال القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومن ههنا لبيان الجنس لا التعميم في قوله تعالى

آيات

شفاء كما قال في الآية الاخرى فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فابوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحى فسموا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم لو أنتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا الله أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا أيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم شيء فقال بعضهم نعم والله إني لأرقي ولكن والله استضعفنا فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جلا فصالحهم على قطع من الغم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكانما نشط من عقاب فانطلق يمشي ومابه قلبه فأوفوهم جملهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم اقسموا فقال الذي رقا لا نفعل حتى تأتي النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له الذي كان فنظر بما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك فقال وما يدريك إنها رقية ثم قال قد أصبتم اقسموا وأضربوا لى معكم سهماً فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن وهو سهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأي لها تأثيراً عجيباً في الشفاء ومكثت بمكة مدة تعزيتني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأري لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يشتكى ألماً وكان كثير منهم يبرأ سريعاً ولكن ههنا أمر يذني التفطن له وهو ان الاذكار والآيات والادعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همه الفاعل وتأثيره فتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المتفعل أو لمانع قوي فيه يمنع ان ينجح فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والادواء الحسية فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره فان الطبيعة اذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول وكذلك القلب اذا أخذ الرقاء والتلويد بقبول تام وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء وكذلك الدعاء فانه من أقوى الاسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه بان يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فان السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً وإما حصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم وورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو والاهو وغلبتها عليها كما في صحيح الحاكم من حديث

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا نافع من زيل للداء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كافي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام وشربه حرام ومأبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لآبيه أصاب نبي إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم إنكم تخرجون إلى الصعيد بآبدان نجسة وترفعون إلى أكفا قد سفكتم بها الدماء وملاتم بها بيوتكم من الحرام الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعدا وقال أبو ذر يكفي من الدعاء البرأ ما يكفي الطعام من الملح

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية وهو دعو البلاء يدافعه ويبالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض وله مع البلاء ثلاث مقامات أحدها أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً الثالث أن يتقاوماً ويمنع كل واحد منهما صاحبه وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفي حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيمتلجان إلى يوم القيامة وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء وفيه أيضاً من حديث تروك عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه

فصل

ومن أنفع الأدوية الإطراح في الدعاء وقد روى ابن ماجه في صحيحه

الإطراح

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الملحين في الدعاء وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال قال مورك ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يارب يارب لعل الله عز وجل أن ينجي

فصل في الدعاء

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطي الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتماهدده ويستقيه فلما استبطأ كاله وإدراكه تركه وأهمه وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي وفي صحيح مسلم عنه لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بأثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء وفي مسند أحمد من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل قالوا يا رسول الله كيف يستعجل قال يقول قد دعوت لربي فلم يستجب لي

فصل في الدعاء

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والاقامة وأدبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلوة وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلاله وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثني بالصلوة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ثم قدم بين يديه حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله والحق عليه في المسئلة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه باسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يديه دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الادعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للأسم الأعظم فمنها ما في السنن وفي صحيح بن حبان من

أدعية الدعاء
أوقات الإجابة

حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك باني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد فقال لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب وفي لفظ لقد سألت الله باسمه الأعظم وفي السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلي ثم دعا فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى وأخرج الحديثين أحمد في مسنده وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاحة آل عمران ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفي مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيع بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنطوا بياض الجلال والإكرام يني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أمم الأمر رفع رأسه إلى السماء وإذا اجتهد في الدعاء قال يا حي يا قيوم وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كره أمر قال يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن البقرة وآل عمران وطه قال القاسم فالتسها فاذا هي آية الحي القيوم وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له قال الترمذي حديث صحيح وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمرهم فدعاه به يفرج الله عنه دعاء ذي النون وفي صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول هل أدلكم على اسم الله الأعظم دعاء يونس فقال رجل يا رسول الله هل كان ليونس خاصة فقال ألا تسمع قوله فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين فأبما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطى أجر شهيد وإن برأ برأ مغفوراً له وفي الصحيحين من حديث بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم

لا إله الا الله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم وفي مسند الامام أحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل بي كرب أن أقول لا إله الا الله الحليم الكريم سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وفي مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هولاك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزله في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي الا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً فقيل يا رسول الله ألا تتعلمها قال بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها وقال ابن مسعود ما كرب نبي من الانبياء الا استغاث بالتسبيح وذكّر ابن أبي الدنيا في كتاب المجانين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار يكنى أبا معلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقبه لص مقنع في السلاح فقال له ضع مامعك فاني قاتلك قال فتأريد الادمي فشأنك والمال قال أما المال فلي ولست أريد إلا دمك قال أما إذا أبيت فذرني اصلي أربع ركعات قال صل ما بدا لك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال ياودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما يريد أسألك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ان تكفيني شر هذا اللص يا مغيث اغثني يا مغيث اغثني يا مغيث اغثني ثلاث مرات فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل اليه فقال قم فقال من أنت يا بني أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لآبواب السماء قعقة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لاهل السماء نحية ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي دعاء مكروب فسألت الله ان يوليني قتله قال الحسن فمن توضي وصلي أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب

فصل

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حمته تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته أو صادف الدعاء وقت إجابة ونحو ذلك فاجبت دعوته فيظن الظان ان السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه

مجردا عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فانتفع به فظن غيره ان استعمال هذا الدواء مجردا كاف في حصول المطلوب كان غالطا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل ان السر للقبر ولم يعلم ان السر للاضطرار وصدق اللجوء الى الله فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان افضل واحب الى الله

- فصل -

والادعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا يجده فقط فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به والساعد ساعد قوي والمانع مفقود حصلت به النكابة في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فان كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر

- فصل -

وهنا سؤال مشهور وهو ان المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع وان لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت لافائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فان اطردهم لوجب تعطيل جميع الاسباب فيقال لاحد من ان كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل وإن لم يقدر لم يقمأ أكلت أو لم تأكل وإن كان الولد قدر لك فلا بد منه وطأت الزوجة والامة أو لم تطأها وإن لم يقدر لم يكن فلا حاجة الى التزويج والتسري وهم جرا فهل يقال هذا عاقل أو آدمي بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا وتكليس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا الكيس بين الدعاء والامسك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء بل الدعاء علامة مجردة نصها الله سبحانه أمانة على قضاء الحاجة فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمانة على أن حاجته قد قضيت وهذا كما إذا رأيت غيا أسود باردا في زمن الشتاء فان ذلك دليل وعلامة على أنه يطر قالوا وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لانها أسباب اجابة

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار والحرق مع الاحراق والازهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سبباً ألبتة ولا إرتباط بينهما وبين ما يترتب عليه الا بمجرد الاقتران العادي لا التأثير السببي وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء بل أضحكوا عليهم العقلاء والصواب ان ههنا قسمان ثالثاً غير ما ذكره السائل وهو أن هذا المقدر قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجرداً عن سببه ولكن قدر بسببه فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدر ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدر وهذا كما قدر الشبع والري بالاكل والشرب وقدر الولد بالوطي وقدر حصول الزرع بالبذر وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه وكذلك قدر دخول الجنة بالاعمال ودخول النار بالاعمال وهذا القسم هو الحق وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له وحينئذ فالدعاء من أقوى الاسباب فاذا قدر وقوع المدعوه بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة في الدعاء كما لا يقال لافائدة في الاكل والشرب وجميع الحركات والاعمال وليس شيء من الاسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب ولما كان الصحابة رضی الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر رضی الله عنه يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنده وكان يقول للصحابة لستم تنصرون بكثرة وإنما تنصرون من السماء وكان يقول اني لأحملهم الاجابة ولكن هم الدعاء فاذا ألهمت الدعاء معه فان الاجابة معه وأخذ هذا الشاعر فنظمه فقال

لو لم ترد نيل ما أرجوه وأطلبه * من جودك فيك ما علمتني الطلباً
فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الاجابة فان الله سبحانه يقول ادعوني أستجب لكم وقال وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته وإذا رضی الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه وقد ذكر الامام أحمد في كتاب الزهد اثرأنا الله لا إله إلا أنا إذا رضيت بركت وليس لبركتي منهي وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد وقد دل العقل والنقل والفطرة ومجارب الامم على اختلاف أجناسها ومللها ومحلها على أن التقرب الى رب العالمين وطالب مرضاته والبر والاحسان الى خلقه من أعظم الاسباب الجالبة لكل خير واضدادها من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب اليه والاحسان الى خلقه وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الاعمال ترتيب الجزاء (٢ - الدواء)

على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الحبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاشئين وقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وقوله والساارق والساارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا وقوله ان المسلمين والمسلمات الى قوله والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر أعظيماً وهذا كثير جداً وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم وقوله وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً وقوله فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونظائره وتارة يأتي بلام التميل كقوله ليتدبروا آياته ولتذكر أولوا الألباب وقوله لئلا تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وتارة يأتي باداءة كي التي للتعليل كقوله كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى ذلك بما قدمت أيديكم وقوله بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون وقوله ذلك بأنهم كفروا بآياتنا وتارة يأتي بالمفعول لاجابه ظاهراً أو محذوفاً كقوله فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى وكقوله تعالى أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين وقوله أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا أي كراهة أن تقولوا وتارة يأتي بفاء السببية كقوله فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها وقوله فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقوله فكذبوها فكانوا من المهلكين ونظائره وتارة يأتي باداءة لما الدالة على الجزاء كقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم ونظائره وتارة يأتي بأن وما علمت فيه كقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات وقوله في ضد هؤلاء إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين وتارة يأتي باداءة لولا الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله فلولا انه كان من المسيحين للبت في بطنه الى يوم يبعثون وتارة يأتي بلو الدالة على الشرط كقوله ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وبالجملة فالقرآن من أوله الى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والاحكام الكونية والامرية على الاسباب بل ترتب احكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الاسباب والاعمال ومن تفقه في هذه المسئلة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكلم على القدر جهلاً منه وعجزاً وتقر يبطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً أو عجزه توكله بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن الانسان ان يعيش الا بذلك فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر وهكذا من وفقه الله وأطعمه

رشدہ يدفع قدر العقوبة الاخرية بقدر التوبة والایمان والاعمال الصالحة فهذا وزن الخوف في الدنيا وما يضافه قرب الدارين واحد وحكمته واحده لا ينقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضاً فهذه المسألة من اشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان لكن يبقى عليه امران بهما تم سعاده وفلاحه أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهد في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الامم قديماً وحديثاً ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن فإنه كفيلاً بذلك على أكل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبذبة ثم السنة فانها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني ومن صرف اليهما عنايته اکتفى بهما من غيرهما وهما يربانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعاین ذلك عياناً وبعد ذلك فاذا تأملت أخبار الامم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله يجز وعده لا محالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر

فصل في

الأمر الثاني أن يحذر مغالطة نفسه على هذا الأسباب وهذا من أهم الأمور فان العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له في دنياه وآخرته ولا بد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتشويق بالتوبة والاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالتمدر تارة وبالاحتجاج بالاشياء والنظر تارة وبالافتداء بالأكابر تارة وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا وقال لي رجل من المتسبين الى النجف أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أحبه كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطايا ولو كانت مثل زبد البحر وقال لي آخر من أهل مكة نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً قد محي عنه ذلك وقال لي آخر قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أذنب عبد ذنباً فقال أي رب أصبت ذنباً فأغفر لي فغفر الله ذنبه ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال أي رب أصبت ذنباً فأغفر لي فقال الله عز وجل علم عبي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به وقد غفرت لعبي فليصنع ماشاء وقال أنا لأشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعاق بنصوص من الرجاء واتكل عليها

وتعاقبها بكتا يديه واذا عوتب على الخطايا والانهمالك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء والجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم وكثر ما استطعت من الخطايا اذا كان التدوم على كريم وقول بعضهم التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله / وقال الآخر ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغارها وقال محمد بن حزم رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من العصمة ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبروان العبد لافعل له البتة ولا إختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي ومن هؤلاء من يفتخر بمسألة الارجاء وأن الايمان هو مجرد التصديق والاعمال ليست من الايمان وأن ايمان أفسق الناس كايمن جبريل وميكائيل ومن هؤلاء من يفتخر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله بهم وسؤاله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يفتخر بابائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصالحاً فلا يدعون أن يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك فان الملوك تهب لخواصهم ذنوب آبائهم وأقاربهم وإذا وقع أحد منهم في أمر مفضح خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزاته ومنهم من يفتخر بان الله عز وجل غنى عن عذابه وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئاً فيقول أنا مضطر إلى رحمة وهو أغني الاغنياء ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها فالله أكرم وأوسع فالعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً ومنهم من يفتخر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على انكباثر فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه تبارك وتعالى وكاتكال بعضهم على قوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعاً وهذا أيضاً من أقبح الجهل فان الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين فإنه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة وهذا إنما أوتي صاحبه من قلة علمه وفهمه فإنه سبحانه هنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فاخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره وكاغترار بعض الجهال بقوله

تعالى يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم فيقول كرمه وقد يقول بعضهم انه لقن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وانما غرده بربه الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهاد وهو ادواني سبحانه بافظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إيهام حقه فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار لا يصلها إلا الأشتى الذي كذب وتولى وقوله أعدت للكافرين ولم يدر هذا المغتر ان قوله فأندرتكم ناراً تلتظي هي النار مخصوصة من حجة دركات جهنم ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقبل لا يدخلها بل قال لا يصلها إلا الأشتى ولا يلزم من عدم صلاحها عدم دخولها فان الصلأ أخص من الدخول ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضموناً له ان يحجبها وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة أعدت للمتقين ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيراً قط وكاغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر ولم يدر هذا المغتر ان صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر ما بينهما اذا اجتنبت الكبائر فرمضان والجمعة الى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر الا مع انضمام ترك الكبائر اليها فيقوي مجموع الأمرين على تكفير الصغائر فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عمها العبد وهو مصر عليها غير نائب منها هذا مجال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومه ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراراً على الكبائر مانعاً من التكفير فاذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار وتعاوناً على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر تساعد متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال إن تجذبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم فعمل أن جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء يعني ما كان في ظنه فانا فاعله به ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان فان الحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخالف وعده ويقبل توبته واما المصير على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنه

من حسن الظن بربه وهذا موجود في الشاهد فان العبد الآبق المبي الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ولا يجامع وحشة الاساءة إحسان الظن ابداً فان المبي مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصري ان المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وان الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل فكيف يكون يحسن الظن بربه من هو شارده عنه حل مرتحل في ما خطه وما ينضبه متعرض لاعتته قد هان حقه وأمره عليه فإساءته وهان نوره عليه فارتكبه وأصر عليه وكيف يحسن الظن به من بارز بالمحاربة وعادى أولياءه ووالى أعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رساله وظن بجهالة ان ظاهر ذلك ضلال وكفر وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يعقب وتد قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بما لا يليق به فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان الاحسان ظن بربه فتأمل هذا الموضوع وتأمل شدة الحاجة اليه وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بانه ملاق الله وأن الله يسمع ويرى مكانه ويعلم سره وعلايته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل وهو مقيم على مسأخطة مضيع لأوامره معطل لحقوقه وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا الا من خدع النفوس وغرور الاماني وقد قال أبو امامة بن سهل بن حنيف دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت لورايتما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض له وكانت عندي ستة دنانير أوسبعة فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها قالت فشقاني وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله ثم سألتني عنها فقال ما فعلت أ كنت فرقت الستة الدنانير فقلت لا والله لقد كان شغلي وجعك قالت فدعا بها فوضعها في كفه فقال ما ظن نبي الله لواتي الله وهذه عنده وفي لفظ ما ظن محمد بربه لواتي الله وهذه عنده فيالله ما ظن أصحاب الكبار والظلمة بالله اذا لقوه ومظالم العباد عندهم فان كان ينفعهم قولهم حسناً ظنونا بك لم يعذب ظالم ولا فاسق فليصنع العبد ما شاء وليرتكب كل ما نهى الله عنه وليحسن ظنه بالله فان النار لا تمسه فبجان الله ما يبلغ الغرور بالعبد وقد قال ابراهيم لقومه افكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ومن تأمل هذا الموضوع حق التأمل علم أن حسن الظن

بالله هو حسن العمل نفسه فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويشبه عليها ويتقياها منه فالذي حماه على العمل حسن الظن فكلما حسن ظنه حسن عمله والافضل حسن الظن مع اتباع الهوى عجز كما في الترمذي والمسند من حديث شداد ابن اوس عن النبي صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وإمام مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأني احسان الظن فان قيل بل يتأني ذلك ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وان رحمته سبقت غضبه وانه لا ينفعه العقوبة ولا يضره العفو قيل الامر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشتركت في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض لعنته وواقع في محارمه وانتكح حرمانه بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن الظن فهذا حسن ظن والاول غرور والله المستعان ولا تستبطل هذا الفصل فان الحاجة اليه شديدة لكل أحد ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به قال الله تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فجعل هؤلاء أهل الرجا لا الظالمين والفاستقين وقال تعالى ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم فاخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجا مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه

- ۱۵ - فصل في

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمهم وضيعوا أمرهم ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب فهو كالماعاند وقال معروف رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحق وقال بعض العلماء من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا وقيل للحسن نراك طويل البكاء فقال أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي وسأل رجل الحسن فقال يا أبا سعيد كيف نضع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تنكأ قلوبنا تنقطع فقال والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خيراً لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى

تلحقك المخاوف وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقطاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول كنت أمركم بالمعروف ولا آتيته وأنهاكم عن المنكر وآتيته وذكر الامام أحمد من حديث أبي رافع قال مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبقيع فقال أف لك أف لك فظننت أنه يريدني قال لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً إلى آل فلان فقل نمره فدرع الآن مثلاً من نار وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء قالوا خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون وفيه أيضاً من حديثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفيه أيضاً عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله آمنة بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء وفيه أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لم أرميكأيل ضاحكاً قط قال ما ضحك منذ خلقت النار وفي صحيح مسلم عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بأهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا بن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتى بأهل الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له يا بن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط وفي المسند من حديث البراء بن عاذب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فأتيناها إلى القبر ولما لحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال استعذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً ثم قال إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدالبصر ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أخرجني أيتها النفس المطمئنة أخرجني إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فأخذها فإذا أخذها

لم يدعوها في يده طرفه عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخنوط
ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على
ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان باحسن اسمائه التي
كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به الى سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل
سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهي به الى السماء السابعة فيقول انه عز وجل
اكتبوا كتاب عبي في عليين وأعيدوه الى الارض فاني منها خلقهم وفيها أعيدهم ومنها
أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول
ربي الله عز وجل فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي
بعت فيكم فيقول هو محمد رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله
عز وجل فأمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبي فافرشوا له من الجنة
والبسود من الجنة وافتحوا له باباً الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره
مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي
يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي ينجي بالحير
فيقول أنا عمالك الصالح فيقول رب أقم الساعة ثم رب أقم الساعة حتى أرجع الي أهلي ومالي
قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة
من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجاسون منه مد البصر ثم يحيى ملك الموت حتى
يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق
في جسده فينزعه كما ينزع السفود من الصوف المبتل فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في
يده طرفه عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأن ريح جيفة وجدت على وجه
الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة
فيقولون فلان بن فلان باقبح اسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له
ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج
الجل في سم الخياط فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سبعين في الارض السفلى فتطرح
روحه طرحاً ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح
في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول
هاء هاء لأدري فيقولان له ما دينك فيقول هاء هاء لأدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي
بعت فيكم فيقول هاء هاء لأدري فينادي مناد من السماء أن كذب عبي فافرشوا له من
النار والبسود من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه

(۳ - الدواء)

قبره حتى تخائف فيه اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذي يحب بالبشر فيقول أنا عمالك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة وفي لفظ لأحمد أيضاً ثم يقبض له أعني أصم أ بكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلا كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمها كل شيء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب النار ويمهد له من فرش النار وفي المسند أيضاً عنه قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بصرجة فقلنا على ما اجتمع هؤلاء قيل على قبر يحفرونه ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدري بين يدي أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر فحشي على ركبتيه فاستقبلته من بين يديه لا تظن ما يصنع فبكي حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال أي إخواني مثل هذا اليوم فاعدوا وفي المسند من حديث بريدة قال خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فنادي ثلاث مرات يا أيها الناس أندرون مامثي ومثلكم فقالوا الله ورسوله أعلم فقال إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فابصر العدو فاقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فاهوي بثوبه أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم ثلاث مرات وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما أسكر حرام وإن على الله عز وجل عقداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى ملائكة وأسمع ملائكة يسمعون أطت السماء وحق لها أن تظن ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبح الله ساجداً أو تعامون ما أعلم لضحككم قليلاً ولبكيكم كثيراً وما تلهذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله تعالى قال أبو ذر والله لوددت أني شجرة تعضد وفي المسند أيضاً من حديث حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فاما انتهينا إلى القبر فعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملا على الكافر ناراً والحائل عروق الأتئين وفي المسند أيضاً من حديث جابر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفي فلما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه سبوح رسول الله صلى الله عليه وسلم فبجناط ويلاً ثم كبر فكبرنا فقيل يا رسول الله لما سبحت ثم كبرت فقال لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على

أعناقهم فان كانت سالحة قالت قدموني وان كانت غير سالحة قالت ياويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء الا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنوا الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا تفلي منها الرؤس كما تفلي القدور يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ الى كعبه ومنهم من يبلغ الى ساقه ومنهم من يبلغ الى وسطه ومنهم من ياجمه العرق وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وفي المسند أيضا عن ابن عمر يرفعه من تعظم في نفسه أو اختال في مثبته لقي الله وهو عليه غضبان وفي الصحيحين عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم احيوا ما خلقتم وفيه أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من العداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة وفيهما أيضا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الي فرحهم ويزداد أهل النار حزنا الي حزنهم وفي المسند عنه قال من اشترى ثوبا بشرة درهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلوة مادام عليه ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال صمنا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقوله وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ترك الصلاة سكرأ مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فساها ومن ترك الصلاة سكرأ أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يا رسول الله قال عصارة أهل جهنم وفيه أيضاً عنه مرفوعاً من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلوة أربعين صباحاً فان تاب تاب الله عليه فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فان عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من روغة الخبال يوم القيامة وفي المسند أيضا من حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات مدمناً لا يخمر سقاء الله من نهر الغوطة قيل وما نهر الغوطة قال نهر يجري من فروج المؤمنين يؤذي أهل النار ربح فزوجهن وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فيجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيمنه وأخذ بشماله وفي المسند أيضاً من

حديث بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهم
يختمون على الرجل حتى يهلكه وضرب لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً كمثل
قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء
بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قدفوا فيها وفي الصحيح من حديث
أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الجسر على جهنم فأكون أول
من يجوز ودعوى الرسول يومئذ اللهم سلم سلم وحافيه كلاب مثل شوك السعدان يختطف
الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعمله ومنهم المخدوش ثم يجوا حتى إذا فرغ الله من القضاء
بين العباد وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم من كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر
الملائكة أن يخرجوه فيعرفونه بعلامة أثر السجود وحرم الله على النار أن تأكل من ابن
آدم أثر السجود فيخرجونهم وقد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبتون
نبات الحبة في حبل السيل وفي صحيح مسلم عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول إن أول الناس يتقى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها
فقال ما سمعت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكن قاتلت أيقال هو جريء
فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن
فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما سمعت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك
القرآن فقال كذبت واكفك تعلمت أيقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن أيقال هو قاريء
فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه
من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما سمعت فيها فقال ما تركت من سبيل
تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت أيقال هو جواد فقد قيل
ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار وفي لفظ فهو لاء أول خلق الله تسعهم
النار يوم القيامة وسمعت شيخ الإسلام يقول كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من
تشبه بهم من الكذابين وأدعي أنه منهم وليس منهم نفي الناس بعدهم العلماء والشهداء
والصديقون والمحاصون فشر الناس من تشبه بهم يومئذ أنه منهم وليس منهم وفي صحيح البخاري
من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال
أو عرض فليأتها فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وائس عنده دينار ولا درهم فإن كانت
له حسنات أخذ من حسناته فاعطها هذا والأخذ من سيئات هذا فطرح عليه ثم طرح
في النار وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ شراً
من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين وفي الصحيحين عنه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ناركم هذه التي توقدبنوا آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها وفي المسند عن معاذ قال أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تشرك بالله شيئاً وان قلت أو حرقت ولا تعقن والديك وان أمراك ان تخرج من مالك وأهلك ولا تترك صلوة مكتوبة متعمداً فان من ترك صلوة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ولا تشرب خمرأ فانه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فان المعصية تحمل سحقاً الله والاحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعاطى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعاقق بحسن الرجاء وحسن الظن قال أبو الوفاء بن عقيل أحذر ولا تغتر فانه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجهد الحد في مثل رأس الأبرة من الحمر وقد دخلت المرأة النار في هرة واشتعل الشعاب ناراً على من غابها وقد قتل شهيداً وقال الامام أحمد ثنا معاوية ثنا الاعمش عن سليمان بن مسيرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزد أحد حتى يقرب له شيئاً فقال لأحدهما قرب فقال ليس عندي شيء قالوا قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيبه فدخل النار وقالوا لا آخروا قرب فقال ما كنت أقرب شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه يغتر به ويظن أن ذلك من محبة الله وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور قال الامام أحمد ثنا يحيى بن غيلان ثنا شد بن سعد عن حرمة بن عمران النخعي عن عقبية بن مسلم عن عقبية بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج ثم تلى قوله عز وجل فلما نسوا ما ذكروا به فبجنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون وقال بعض السلف إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فانما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سفكاً من فضة ومعارض عليها يظهرون وبيوتهم أبواباً وسريراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقد رد سبحانه على من يظن هذا للظن بقوله فاما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلاً أي ليس كل من أعمته ووسعت

عليه رزقه أكون قدأ كرمته وايس كل من ابتليته وضيقته عليه رزقه أكون قد اهنته بل أبتلى هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الايمان إلا من يحب وقال بعض السلف رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجبها فأثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة حتى يقول بعض هؤلاء الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة ويقول بعضهم درة منقودة ولا درة موعودة ويقول آخر منهم لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ولا أدع اليقين للشك وهذا من أعظم تليس الشيطان وتسويله والبهائم العجم أعقل من هؤلاء فان البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم أحدهم على ما فيه عطفه وهو ينظر اليه وهو بين مصدق ومكذب فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم وإن لم يؤمن بالله ورسوله فابعد له وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة فجوابه انه اذا تساوي النقد والنسيئة فالنقد خير وان تفاوتتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير فكيف والدنيا كلها من أولها الى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع فايشار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل واذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها الى الآخرة فما مقدار عمر الانسان بالنسبة الى الآخرة فأبداً أولى بالعاقل إيشار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له ولا حضر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمدته وأما قول الآخر لا أترك متيقناً مشكوك فيه فيقال له إما أن تكون على شك من وعد الله وووعيده وصدق رسوله أو تكون على اليقين من ذلك فان كنت على اليقين فما تركت الا ذرة عاجلة منقطة فانية عن قرب لأنه متيقن لاشك فيه ولا انقطاع له وان كنت على شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسوله فيما أخبروا به عنه ونجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه وان خالق هذا العالم هو رب

السماوات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه ومن نسبة الى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه اذ من المحال الممتع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لا يعلم شيئا ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملا ولهذا يقدر في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين اليه واذا تأمل الانسان حاله من مبدأ كونه نطفة الى حين كماله واستوائه تبين له ان من عني به هذه العناية ونقله الى هذه الأحوال وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهيه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب إيمان القرآن عند قوله فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله وفي أنفسكم أفلا تبصرون وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله فقد بان بان المضيع منور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشككه فان قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويخلف العمل وهل في الطباع البشرية ان يعلم العبد انه مطلوب غذا الى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيا فلا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبة قيل هذا امر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق واجتماع هذين الامرين من أعجب الاشياء وهذا التخلف له عدة أسباب أحدها ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فتموله من أفسد الأقوال وأبطلها وقد سأل ابراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة وقد روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الخبر كالمعين فاذا اجتمع الى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاؤه وانضم الى ذلك تقاضى الطبع وغلبات الهوى واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الأمل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل والنف العوائد فهناك لا يمسك الايمان في القلب الا الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا وبهذا السبب يتفاوت الناس في الايمان والاعمال حتى ينتهي الى أدنى مثقال ذرة في القلب وجماع هذه الأسباب يرجع الى ضعف

البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون

- ﴿ فصل ﴾ -

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وان حسن الظن ان حمل على العمل
وحت عايه وساعده وساق اليه فهو صحيح وان دعا الى البطالة والانهماك في المعاصي فهو
غرور وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاءه جذاباً له على الطاعة زاجراً له عن المعصية
فهو رجاء صحيح ومن كانت بطالته رجاءه ورجاءه بطالة وتفريظاً فهو الغرور ولو أن
رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عايه من مغاها ما ينفعه فاهماها ولم يبذرهما ولم يحرقها
وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغاها ما يأتي من غير حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعهده
الناس من أسفه السفهاء وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بأنه يجيئه ولد من غير جماع
أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك فكذلك من
حسن ظنه وقوى رجاءه في الفوز بالدرجات العلي والتعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب
الى الله تعالى بأمثال أوامر واجتناب نواهيه وبالله التوفيق وقد قال الله تعالى ان الذين آمنوا
والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فتأمل كيف جعل رجاءهم
بآياتهم بهذه الطاعات وقال المغتربون ان المغرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لاوامره
الباغين على عباده المتجرئين على محارمه أوامره يرجون رحمة الله وسر المسئلة ان الرجاء
وحسن الظن إنما يكون مع الايمان بالاسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره
وثوابه وكرامته فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله اليها وأن يجعلها
موصلة الى ما ينفعه ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها

- ﴿ فصل ﴾ -

وما ينبغي أن يعلم أن من رجائياً استلزم رجاءه ثلاثة أمور أحدها محبته ما يرجوه الثاني
خوفه من فواته الثالث سعيه في تحصيله بحسب الامكان وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك
فهو من باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على
الطريق اذا خاف أسرع السير مخافة الفوات وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله
غالبه إلا ان سلعة الله الجنة وهو سبحانه كما جعل الرجاء لاهل الاعمال الصالحة فكذلك
جعل الخوف لاهل الاعمال الصالحة فعلم ان الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل

قال الله تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجاهة إهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون فقال لا يا ابنه الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويحافظون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالاساءة مع الامن ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جئنا بين التفسير بل التفريط والامن فهذا الصديق يقول وددت اني شجرة في جنب عبد مؤمن ذكره أحمد عنه وذكر عنه أيضاً انه كان يمك بلسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد وكان يبكي كثيراً ويقول أبكوا فان لم تبكوا فبأكوا وكان اذا قام الى الصلاة كانه عود من خشية الله عز وجل وأتى بطائر يقابه ثم قال ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة (١) الا بما ضيعت من التسبيح وما احتضر قال لعائشة يا بنيت اني أصبت من مال المسامين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد فامر عي به الى بن الخطاب وقال والله لو ددت اني كنت هذه الشجرة تؤكل وتمضد وقال قتادة بلغني ان أبا بكر قال ليتني (٢) خضرة تأكلني الدواب وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور الى أن بلغ قوله إن عذاب ربك لواقع فبكي وإشتد بكاءه حتى مرض وعادوه وقال لابنه وهو في الموت ويحك ضع خدي على الارض ع. (٣) أن يرحمني ثم قال ويل أمي إن لم يفر الله لي ثلاثاً ثم قضى وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتختمه فيتي في البيت أياماً ويعاد بحسبونه مريضاً وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس مصر الله بك الامصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال وددت اني أئبجو لأجر ولا وزر وهذا عثمان بن عفان كان اذا وقف على القبر يبكي حتى تبل لحيته وقال لو انني بين الجنة والنار لأدري الى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم الى أيتهما أصير وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكأوه وخوفه وكان يشتد خوفه من انثنين طول الامل واتباع الهوي قال فاما طول الامل فيذني الآخرة وأما إتباع الهوي فيصد عن الحق الأولان الدنيا قدولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وهذا بالدرء

(١) عضد شجر (٢) وددت اني (٣) امل الله

(٤ - الدواء)

قال الله تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجاهة إنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون فقال لا يا ابنه الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويحافظون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالاساءة مع الامن ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جئنا بين التفسير بل التفريط والامن فهذا الصديق يقول وددت اني شجرة في جنب عبد مؤمن ذكره أحمد عنه وذكر عنه أيضاً انه كان يمك بلسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد وكان يبكي كثيراً ويقول أبكوا فان لم تبكوا فبأكوا وكان اذا قام الى الصلاة كانه عود من خشية الله عز وجل وأتى بطائر يقابه ثم قال ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة (١) الا بما ضيعت من التسبيح وما احتضر قال لعائشة يا بنيت اني أصبت من مال المسامين هذه العباءة وهذه الخلاب وهذا العبد فامر عي به الى بن الخطاب وقال والله لو ددت اني كنت هذه الشجرة تؤكل وتمضد وقال قتادة بلغني ان أبا بكر قال ليتني (٢) خضرة تأكلني الدواب وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور الى أن بلغ قوله إن عذاب ربك لواقع فبكي وإشتد بكاءه حتى مرض وعادوه وقال لابنه وهو في الموت ويحك ضع خدي على الارض ع. (٣) أن يرحمني ثم قال ويل أمي إن لم يفر الله لي ثلاثاً ثم قضى وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتختمه فيتي في البيت أياماً ويعاد بحسبونه مريضاً وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس مصر الله بك الامصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال وددت اني أئبجو لأجر ولا وزر وهذا عثمان بن عفان كان اذا وقف على القبر يبكي حتى تبل لحيته وقال لو انني بين الجنة والنار لأدري الى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم الى أيتهما أصير وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكأوه وخوفه وكان يشتد خوفه من ان تبين طول الامل واتباع الهوي قال فاما طول الامل فيذني الآخرة وأما إتباع الهوي فيصد عن الحق الأولان الدنيا قدولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وهذا بالدرء

(١) عضد شجر (٢) وددت اني (٣) امل الله

(٤ - الدواء)

كان يقول إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي يا أبا الدرداء قد علمت فكيف عملت فيما علمت وكان يقول لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتم شراباً على شهوة ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولو ددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل وهذا عبد الله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع وكان أبو ذر يقول يا ليتني كنت شجرة تعضد وددت أني لم أخاق وعرضت عليه التفقة فقال عندنا عثر نحامها وحر نقل عابها ومحرر يخدمنا وفضل عبادة وإني أخاف الحساب فيها وقرأ نعيم الداري ليلة سورة الحانية فلما أتى على هذه الآية أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات جعل يرددها ويبكي حتى أصبح وقال أبو عبيدة بن الجراح وددت أني كبش فذبني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقى وهذا باب يطول تتبعه قال البخاري في صحيحه باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر وقال إبراهيم التيمي ما عرضت قولي على عملي الاخشيت أن أكون مكذبا وقال بن أبي مايكة ادركت ثلثين من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول انه على ايمان جبريل وميكائيل ويذكر عن الحسن ما خافه المؤمن ولا آمنه الا منافق وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة أنشدك الله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في المنافقين فيقول لا ولا أركى بمدك احداً فسمعت شيخنا يقول مراده اني لأبرئ غسيرك من النفاق بل المراد اني لأفتح على هذا الباب فكل من سألني هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزكيه قلت وقريب من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب سبقك بها عكاشة ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك من عداه من الصحابة ولكن لودعا له اقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الامساك أولى والله أعلم

فصل في

فانرجع الى ما كنا فيه مما ذكرنا من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وأخرته فما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الابدان على اختلاف درجاتها في الضرر وهزل في الدنيا والآخرة شرور وداء الاسبية الذنوب والمعاصي فالذي أخرج الأبوين من الجنة دار الازفة والنعيم والبهجة والمسرور الى دار الآلام والاحزان والمصاب وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء

وطرده ولعنه ومسح ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحاً وبالجنة ناراً تلظي وبالإيمان كفرأ وبموالات الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة وبزجل انتسابه والتقديس والتهاويل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش وبإباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والمصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فاهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قواداً لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة فعياداً بك اللهم من مخالفة أمرك وإرتكاب نهيك وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال وما الذي ساطت الريح العقيم على قوم عاد حتى القهم موتي على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما مر عليه من ديارهم وحرورهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للآدم إلى يوم القيامة وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وما الذي رفع قري اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فحمل عاليها سافلها فاهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علي أمة غيرهم ولاخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم ناراً تلظي وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للفرق والأرواح للبحر وما الذي خسف بقارون وداره وواله وأهله وما الذي أهلك القرون من بطن نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولى بأس شديد فجازوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تبيراً وما الذي ساطت عليهم بأنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قرده وختازيرواً آخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ليعمّن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب قال الامام أحمد ثنا الوائد بن مسلم ثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال الماتحت قبرس فرق بين أهلها فبكي بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله فقال ويحك يا جبير ما هون الخناق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى وقال علي بن الجعدنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت

ابا البخاري يقول اخبرني من سمع انبي صلى الله عليه وسلم يقول لن يهلك انسان حتي يعذروا من انفسهم وفي مسند احمد من حديث أم سامة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ظهرت المعاصي في أمي عنهم الله بعذاب من عذبه فقلت يا رسول الله أما فيهم يومئذ اناس صالحون قال بلى قلت كيف يصنع بأولئك قال يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون ابي مغفرة من الله ورضوان وفي مراسيل الحسن عن انبي صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت يد الله في كنفه ما لم يمال قراؤها امراءها وما لم يترك صالحاؤها فخارها وما لم يهن خيارها شرارها فاذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبارتهم فيسوءونهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر وفي المسند من حديث ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل ايجرم الرزق بالذنب يصيبه وفيه أيضا عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن تداعي عليكم الائم من كل أفق كما تداعي الأكلة على قصعتها قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم وتجمل في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن قال حب الحياة وكرهة الموت وفي المسند من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرجني مررت بقوم لهم أظنار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في آخر الزمان قوم يخلون الدنيا بالدين ويأيسون الناس مسوك الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبي تغترون وعلي تجترؤن في حانث لابعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال علي يأتي على اناس زمان لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى عامؤهاهم أشرم من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود ذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه اذا ظهر الزنا والزنا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها وفي مراسيل الحسن اذا ظهر الناس العلم وضعوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالأرحام لغتهم الله عز وجل عند ذلك فاصمهم وأعمى أبصارهم وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال يا معشر المهاجرين خمس خصال وأعوذ بالله أن تدركوهن ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين

مضوا ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور الساطان ومامن
 قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولا الهائم لم يمطروا ولا خنرقوم المهد إلا سلط
 الله عليهم عدوهم من غيرهم فاخذوا بمض مافي أيديهم ومالم تعمل أمتهم بما أنزل الله في
 كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن
 أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه التاهي تنذيراً فقال يا هذا
 اتق الله فإذا كان من الغد جالساً وواكاه وشاربه كأنه لم يرد على خطيئة بالأمس فلما رأي
 الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم انهم على لسان نبيهم داود وعيسى
 ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون
 عن المنكر ولتأخذن على يد السفية ولتأطرنه على الحق اضراً أو يضرين الله بقلوب بعضكم
 على بعض ثم يا أيها الذين آمنوا لا تأخذن على يد السفية ولتأطرنه على الحق اضراً أو يضرين الله بقلوب بعضكم
 الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم
 قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأختيار قال إنهم لم يعضبوا الغضي وكانوا يوا كانوا يوا ويشار بونهم
 وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية أن دمرها
 بمن فيها فوجدوا فيها رجلاً قائماً يصلي في مسجد فقالا يارب ان فيها عبدك فلانا يصلي فقال
 الله عز وجل دمرها ودمراد معهم فانه مات معرو وجهه (١) في قط و ذكر الحميدى عن سفيان بن
 عيينة قال حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر ان ملكاً أمر أن يخسف قرية فقال يارب ان
 فيها فلاناً العابد فأوحى الله إليه ان به فابدأ فانه لم يتمر وجهه في ساعة قط و ذكر ابن أبي
 الدنيا عن وهب بن منبه قال لما أصاب داود بالخطيئة قال يارب اغفر لي قال قد غفرت لك
 والزم عارها بنى اسرائيل قال يارب كيف وأنت الحكم العدل لا تقلم احداً أنا أعمل الخطيئة
 وتلزم عارها غيرى فأوحى الله إليه انك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالانكار و ذكر
 ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل يا أم
 المؤمنين حدثينا عن الزلزلة (٢) فقالت إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمعازف غار
 الله عز وجل في سماه فقال للأرض تزلزلى بهم فان تابوا ونزعوا وإلا أهدمها عليهم قال يا أم
 المؤمنين أعذاباً لهم قالت بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين
 فقال أنس ما سمعت حديثاً بعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أشد فرحاً مني بهذا الحديث
 و ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسل أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه

(١) نسخه لم يتمر (٢) نسخه كلام في سبب الزلزلة

وسلم فوضع يده عليهما ثم قال (١) اسكني فانهم لم يأنك بعد ثم انتمت الى أصحابه (٢) فقال إن ربكم
 ايستعجبكم فاعتبروه ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس ما كانت هذه
 الزلزلة الا عن شيء أحدثتوه والذي نفسي بيده لان عادت لأما كنتم فيها ابدأ وفي مناقب
 عمر لابن أبي الدنيا إن الارض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده (٣) عليها وقال مالك
 مالك أمانها لو كانت القيامة حدثت أخبارها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا
 كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر الا وهو ينطق وذكر الامام احمد عن صفية قالت
 زلزلت (٤) المدينة على عهد عمر فقال يا أيها الناس ما هذا ما أسرع ما أحدثتم لان عادت لأجدوني
 فيها وقال كعب انما زلزلات الارض اذا عمل فيها بالمعاصي فترعد (٥) فرقا من الرب
 عز وجل أن يطاع عليا وكتب عمر بن عبد العزيز الى الامصار أما بعد فان هذا الرجف
 شيء يبان (٦) الله عز وجل بالعباد وقد كتبت الى سائر الامصار يخرجوا في يوم كذا وكذا
 في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليصدق به فان الله عز وجل قال قد افاج من
 تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقولوا كما قال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا وإن ما نغفر لنا وترحمنا نكون
 من الخاسرين وقولوا كما قال نوح وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين وقولوا كما قال
 يونس لا إله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين وقال الامام احمد حدثنا اسود بن عامر ثنا ابو بكر
 عن الاعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينه (٧) واتبعوا اذئاب البقر وتركوا
 الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعهم عنهم حتى يراجعوا دينهم ورواه ابوداود
 باسناد حسن وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال لقد رأيتنا وما أحدا حق بديناره
 ودرهمه من اخيه المسلم واقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس
 بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينه وتركوا الجهاد في سبيل الله أخذوا اذئاب البقر أنزل الله
 عليهم من السماء بلاء فلا يرفعهم عنهم حتى يراجعوا دينهم وقال الحسن أن العينه والله ما هي
 الا عقوبة من الله عز وجل على الناس ونظر بعض انبياء بني إسرائيل الى ما يصنع بهم يختصر
 فقال بما كتبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا وقال نخت نصر لدانيال ما الذي
 سلطاني على قومك قال عظيم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن
 ياسر وحذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نعمة أمات الاطفال

(١) نسخة فقال (٢) الصحابة (٣) بيده (٤) تزلزلت (٥) فرعة (٦) يعاقب
 (٧) العينه هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل معين ثم يشتريها باقل من
 الثمن الاول

وأعقم أرحام النساء فنزل النعمة وليس فيهم مرحوم وذكروا عن مالك بن دينار قال قرأت (۱) في الحكمة يقول الله عز وجل أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني حماهم عليه رحمة ومن عصاني حماهم عليه نقمة فلا يشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكم توبوا إنني أعطيهم عليكم وفي مراسيل الحسن إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حماهم وفيهم عند سمحاتهم وإذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفاهتهم وفيهم عند بخلاهم وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس يارب أنت في السماء ونحن في الارض فما علامة غضبك من رضاك قال إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عليكم وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة سخطي عليكم وذكر ابن أبي الدنيا عن التفضيل بن عياض قال أوحى الله إلى بعض الانبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني وذكر أيضاً من حديث ابن عمر رفعه والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعداء خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سما الرهبان وقاومهم أنتم من الحيف أهواؤهم مختلفة فيتحب الله لهم فتنه غيراً مظلمة نيتها وكرن (۲) فيها والذي نفس محمد بيده لينقضن الاسلام عروة عروة حتى لا يقال الله الله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو يسلطن الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أولي بعث الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن بن عباس قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما طفف قوم كيلاً ولا بنحسو اميزانا الا نعلمهم الله عز وجل انقطر وما ظهر في قوم الزناء الا ظهر فيهم الموت وما ظهر في قوم الربا الا ساط الله عليهم الجنون ولا ظهر في قوم القتل يقتل بعضهم بعضاً الا ساط الله عليهم عدوهم ولا ظهر في قوم عمل (۳) قوم لوط الا ظهر فيهم الخسف وما ترك قوم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابراهيم بن الاشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن ابيه عن سعيد به وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت دخل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد حفزه النفس فمررت في وجهه أن تد حفزه شيء فأتاكم حتى توحناً وخرج فالتقت بالحجرة (۴) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس اتقوا ربكم إن الله عز وجل يقول لكم مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستعبروني فلا أنصركم وتسالوني فلا أعطيكم وقال العمري الزاهد أن من غفلت عن نفسك وإعراضك عن الله أن تري ما يسخط الله فتجاوزته ولا تأمر فيه

(۱) نسخها رأت (۲) أي يقعون فيها من غير مبالاة (۳) فعل (۴) في الحجرة

ولا تهى عنه خوفاً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً وقال من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعته منه الطاعة ولو أمر ولد أو بعض مواليه لاستخف بجنه
 وذكر الامام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر الصديق
 يا أيها الناس أنكم تتلون هذه الآية وأنكم تضعونها على غير مواضعها يا أيها الذين آمنوا اعلموا
 أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
 إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه وفي لفظ إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك
 أن يعصمهم الله بعقاب من عنده وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سامة عن
 أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخفيت الخطيئة فلا تضر إلا صاحبها
 وإذا ظهرت فلم تضر غير العامة وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب يوشك القرني
 أن تخرب وهي عامرة قيل وكيف تخرب وهي عامرة قال إذا علا فخارها على أبنائها
 وساد القبيلة منافقتها وذكر الأوزاعي عن حسان بن أبي عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال ستظهر شرار أمتي على خيارها حتى يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم وذكر
 ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح
 في الماء قيل بما ذلك يا رسول الله قال بما يري من المنكر لا يستطيع تغييره وذكر الامام
 أحمد من حديث جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز
 وأكثر ممن يعصاه فلم يغيروه إلا عنهم الله بعقاب وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد
 قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يقول نجاه بالرجال يوم القيامة فيأتي في النار
 فتنداق أقبابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاء فيجتمع عليه أهل النار فيقولون أي
 فلان ما شأنك أنت كنت تأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر قال كنت أمرت بالمعروف
 ولا آتيتهم وإنما هم عن المنكر وآتيتهم وذكر الامام أحمد عن مالك بن دينار قال كان حبر
 من أحبار بني إسرائيل يغشي منزله الرجال والنساء فيمظلم ويذكرهم بآيات الله فرأى بعض
 بنيه يوماً يغمز النساء فقال مهلاً يا بني مهلاً يا بني فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت
 امرأته وقتل بنوه فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلانا الخبر إن لا أخرج من صلبك صديقاً
 أبداً ما كان غضبك لي إلا أن قلت مهلاً يا بني مهلاً يا بني وذكر الامام أحمد من حديث
 عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فأنهن
 يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب ابن مثل كمثل
 القوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجي
 بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قدفوا فيها وفي صحيح البخاري عن

عن أنس بن مالك قال إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر وإن كنا نعدّها على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لاهي أطعمتها ولا سقها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء فعلوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ومن هنا قال بعض الساف المعاصي يريد الكفر كما ان القبلة يريد الجماع والغناء يريد الزنا والنظر يريد العشق والمرض يريد الموت وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال يا صاحب الذنب لا تأمن فتنة الذنب وسوء عاقبة الذنب ولما تتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته فله حيا بك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب وضحكك وأنت لم تدر ما لله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب وخوفك من الرج إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب عليه السلام فابتلاه بالبلاء في جسده وذهب ماله استغاث به مسكين على ظالم يدره عنه فلم يغثه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله وقال الامام أحمد حدثنا الوليد قال سمعت الأوزاعي يقول سمعت هلال بن سعد يقول لا تنظر الى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت وقال الفضيل بن عياض بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ويقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله وقيل أوحى الله تعالى الى موسى يا موسى إن أول من مات من خاتي إبليس وذلك لأنه أول من عصاني وإنما أعد من عصاني من الاموات وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تملو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة إذا أذنب ذنباً العبد نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرمداء وقال الامام أحمد ثنا يعقوب ثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبد الله بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما بعد يا معشر قريش فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يحاكم كما يحي هذا القضيب لقضيب في يدهم ثم لحى قضيبه فإذا هر أبيض يصلد وذكر الامام أحمد (٥ - الدواء)

عن وهب قال أن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل انى إذا أطعت
رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت
واعنتى تباع السابغ من الولد وذكر أيضاً عن وكيع ثنا زكريا عن عامر قال كتبت عائشة
الى معاوية أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً ذكر أبو نعيم
عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال لا يحذر إمرأ أن تلغنه قلوب المؤمنين من
حيث لا يشعر ثم قال أتدري مم هذا قلت لا قال إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضه
في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابييه عن
محمد بن سيرين انه لما ركبته الدين اغتم لذلك فقال إني لأعرف هذا الغم بذنوب أصبته منذ
أربعين سنة وهاهنا نكتة دقيقة يفاظ فيها الناس في أمر الذنب وهي إنهم لا يرون تأثيره
في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسى ويظن العبد إنه لا يغير بعد ذلك وإن الأمر كما قال القائل
إذا لم يغير حائط في وقوعه * فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه السكينة من الخلق وكم أزالته من نعمة وكم جلبت من
نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال ولم يعلم المغتر أن الذنب
ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم وكما ينقض الجرح المندمل على النفس والدغل وقد
ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء أعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى واعلموا
أن قليل يكفكم خير من كثير يلهيكم واعلموا أن البر لا يبلى وإن الأثم لا ينسى ونظر
بعض العباد الى صبي فتأمل محاسنه فأتى في منامه وقيل له لتجدن غيباً بعد أربعين سنة
هذا مع أن للذنب نقداً ومجلاً لا يتأخر عنه قال سليمان التيمي أن الرجل يصيب الذنب
في السر فيصبح وعاليه مذاته وقال يحيى بن معاذ الرازي عجبت من ذي عقل يقول في دعائه
اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له قيل وكيف ذلك قال يعصي الله
فيشمت به في القيامة قال ذي النون من خان الله في السر هتك ستره في العلانية

فصل في

وللمعاصي من الآثار القبيحة المدمومة المضررة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة
مألاً يعلمه إلا الله فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفيء
ذلك النور ولما جالس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أحجبه مارأى من وفور
فطنته وتوقد ذكائه وكال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه
بظلمة المعصية وقال الشافعي

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فارشدني الى ترك المعاصي
وقال انتم بان العلم فضل * وفضل الله لا يؤتاه عاصي

ومنها حرمان الرزق وفي المسند ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقد تقدم وكما
ان تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي
ومنها وحشة يجدها المعاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذات اولوا اجتماعت
له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به الا من في قلبه حياة
وما لجرح بميت ايلام فلو لم ترك الذنوب الاحذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل
حريراً بتركها وشكى رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له اذا كنت قد
أوحشتك الذنوب فدعها اذا شئت واستأنس وائس على القلب أمر من وحشة
الذنب على الذنب فالله المستعان ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما
أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن
بجالتهم وحرمت بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب
الرحمن وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه
وبين نفسه فتراد مستوحشاً من نفسه وقال بعض السلف إني لأعصي الله فارى ذلك في
خلق دابتي وإمرأتي ومنها تعسير اموره عاياه فلا يتوجه لامر الا يجده مفلقاً دونه أو
متعسراً عليه وهذا كما إن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً فمن عطل التقوى جعل
الله له من أمره عسراً وبالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه
متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ومنها ظلمته يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس
بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية ابصره فان الطاعة
نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات
والامور المهلكة وهو لا يشعر كاعشى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه
الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تملو الوجه وتصير سواداً في الوجه حتى يراه كل
أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق
وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب
ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق ومنها ان المعاصي توهن القلب
والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها
للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوى
البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه فتأمل قوة

أبدان فارس والروم كيف خاتمهم عند أحوج ما كانوا إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوذاً أبدانهم وقلوبهم ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا إنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرا فينقطع عابداً بالذنوب طاعات كثيرة كل واحد منها خير له من الدنيا وما عاينها وهذا كرجل أكل أكلةً أوجبت له مرضة طويلاً منعتة من عدداً كلات أطيب منها والله المستعان ومنها أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد فإن البر كما يزيد في العمر فالنجور ينقص وقد اختلف الناس في هذا الموضوع فقالت طائفة نقصان عمر المعاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققاً عليه وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصي وقالت طائفة بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فحمل الله سبحانه للبركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده والبركة في العمر أسباباً تكثره وتزبدد قالوا ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب فالرزاق والاحبال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي ما يشاء بأسباب جماعها موجبة لمسبباتها مقتضية لها وقالت طائفة أخرى تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة وهي حياة القاب ولهذا جعل الله سبحانه للكافر ميتاً غير حي كما قال تعالى أموات غير أحياء فالحيوة في الحقيقة حيوة القلب وعمر الانسان مدة حياته فليس عمره الا اوقات حياته بالله فلك ساعات عمره فالبر والتقوي والطاعة تزيد في هذه الاوقات التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها وبالجملة فالعبد إذا عرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غيب إضاعتها يوم يقول يا ليتني قدمت لحياتي فلا يخافوا إيماناً يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا فإن لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلاً وإن كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتمسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقي من عمره وسر المسألة أن عمر الانسان مدة حياته ولا حيوة له إلا بإقباله على ربه والتمس بحبه وذكره وإيثار مرضاته

فصل في

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السافان من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعملني أيضاً فإذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضاً حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة

لضاقت عليه نفسه وضافت عليه الأرض بما رحبت وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاق صدره وأعت عليه مذاهبه حتى يعاودها حتى أن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولاداعية اليها إلا لما يجد من الألم بمذارتها كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هاني حيث يقول

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر

وكانت دوائى وهي دائي بعينه * كابتداوى شارب الخمر يا خمر

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تآزره اليها أزا وتحرضه عليها وتزججه عن فراشه ومجلسه اليها ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتآزره اليها أزا فالاول قوي جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

- فصل -

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلومات نصفه لما تاب الى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان شيء كثير وقابله معقود بالمعصية مصر عليها عازم على موافقتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك

- فصل -

ومنها أنه ينسلخ من القلب إستقباحها فقصيراه عادة فلا يستبجح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكك وتنام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عمها فيقول يا فلان عملت كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل أمتي معافا إلا المجاهرين وإن من الأجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يا فلان عملت يوم كذا وكذا وكذا قهتك نفسه وقد بات يستره ربه ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكتها الله عز وجل فاللوطية ميراث عن قوم لوط وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب والعلو في الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون والتكبر والتعجب ميراث

عن قوم هود فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الامم وهم أعداء الله وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيہ عن مالك بن دينار قال أوحى الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم

فصل

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى ومن يهن الله فما له من مكرم وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفاً من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه ومنها أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار

فصل

ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبو هريرة إن الجباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم وقال مجاهد إن الهائم تلعن عصاة بني آدم إذا أشدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنه من لا ذنب له

فصل

ومنها ان المعصية تورث الذل ولا بد فان العز كل العز في طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً أي فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها الا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزني بطاعتك ولا تذاني بمعصيتك قال الحسن البصري انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لانفارق قلوبهم أبي الله

الان أيدل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك

رأيت الذنوب تميت القلوب * بوقد يورث الذل إيمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * بوخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو * كواخبار سؤ ورهبانها

فصل

ومنها إن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نوراً والمعصية تطفي نور العقل ولا يدم اذا
طفي نوره ضعف ونقص وقال بعض السلف ماعصي الله أحد حتى يغير عقله وهذا ظاهر
فانه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى أو يحتمل به مطلق
عليه وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون اليه وواعظ القرآن نهاه له لفظ
الايمان ينهاه وواعظ الموت ينهاه وواعظ النار ينهاه والذي يصدته بالحسنة من خير الدنيا
والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك
كله والاستخفاف به ذو عقل سليم

فصل

ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض
السلف في قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب بعد الذنب
وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب وقال غيره لما كثرت ذنوبهم
ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن القلب يصدي من المعصية فاذا زادت غلب
الصدي حتى يصير اناسم يغلب حتى يصير طبعاً وتقللاً وختماً فيصير القلب في غشاوة وغلاف
فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه
ويسوقه حيث أراد

فصل

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لعن على
معاصي والتي غيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلمها تحت الامنة فاعن الواشمة والمستوشمة
والواصلة والموصولة والنامصة والتمنصة والواشرة والمستوشرة ولعن آكل الربا ومؤكله
وكاتبه وشاهده ولعن المحال والمحلل له ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقها وعاصرها
ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ولعن من غير منار الارض

وهي إعلالها وحددوها ولعن من لعن والديه ولعن من إتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه
 بهم ولعن المختئين من الرجال والمترجلات من النساء ولعن من ذبح يغير الله ولعن من
 أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ولعن المصورين ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من
 سب أباه وأمه ولعن من كره أعمى عن الطريق ولعن من أتى بهيمة ولعن من رسم دابة
 في وجهها ولعن من ضار مسلم أو كرهه ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد
 والسرج ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده ولعن من أتى امرأة في
 دبرها وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ولعن من
 انتسب إلى غير أبيه وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ولعن من
 سب الصحابة وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه وأذاه وأذى رسوله ولعن
 من كتم ما أنزل الله سبحانه من بينات والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات
 المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم ولعن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم الرجل يابس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ولعن الراشي
 والمرتشي والرائش وهو الواسطة في الرشوة ولعن على أشياء أخر غير هذه فلو لم يكن
 في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بان يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك
 ما يدعو إلى تركه

— فصل —

ومها حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه
 أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون
 بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين
 تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن
 صالح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات فهذا دعاء الملائكة
 للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير
 هؤلاء باجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعولة بها

— فصل —

ومن عقوبات المعاصي مارواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال
 كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأي أحد منكم البارحة رؤيا
 فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة أنه أتاني الليلة آتيان وأنهما أتبعنا لي

وأنهما قالوا لي إنطلق وإني إنطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه
بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثاع رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر
فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة
الأولى قال قلت لهما سبحان الله ما هذا قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل
مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكأوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه
فيشرش شدة إلى قفاه وينخره إلى قفاه وتعينه إلى قفاه ثم يحول إلى الجانب الآخر فيفعل به
مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود
عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى قال قلت سبحان الله ما هذا قالوا لي إنطلق إنطلق
فانطلقنا فأتينا على مثل التنوير وإذا فيه أعط وأصوات قال فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء
عراة وإذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم فإذا أنا هم ذلك اللهب ضوضوا فقال قلت من هؤلاء
قال فقالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فإذا في النهر رجل
ساج يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك الساج يسبح
ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق
فيسبح ثم يرجع إليه كما يرجع إليه فيفغر له فاه فالقمة حجير أقال قلت لهما ما هذا قالوا لي
إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كربه المرأى كما كره ما أنت رأي رجل مرة وإذا
هو عنده نار يحبها ويسمى حولها قال قلت لهما ما هذا قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا
على روضة منيعة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهرائي الروضة رجل طويل لا أكاد
أرى رأسه طولاً في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت ما هذا
وما هؤلاء قال قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أرى دوحة قط أعظم
منها ولا أحسن قال قالوا لي أرق فيها فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بالبن ذهب ولبن فضة
قال فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فلقانا رجل شطر من خلقهم كاحسن
ما أنت رأي وشطر منهم كاقبح ما أنت رأي قال قالوا لهم إذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال
وإذا نهر معترض يجري كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد
ذهب ذلك السوء عنهم قال قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزل قال فسمي بصري صعدا
فإذا قصر مثل الرابية البيضاء قال قالوا لي هذا منزل قال قلت لهما بارك الله فيكما فذرائي
قد دخله قالوا أما الآن فلا وأنت داخله قال قلت لهما فاني رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا
الذي رأيت قال قالوا لي أما أنا سنخبرك أما الرجل الأول الذي أتيت عليه بثلع رأسه
بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرضه وينام عن الصلوة المكتوبة وأما الرجل الذي

أُتيت عليه بشر شر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء انتور فانهم الزناة والزواني وأما الرجل الذي أُتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحثها ويسمى حولها فانه مالك خازن جهنم وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فانه ابراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفي رواية البرقاني ولد على الفطرة فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا يشطرونهم حسن وشر من قبيح فانهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قال مجاهد اذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ثم قال أما والله ما هو بمحرّم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لأقول لكم بمحرّم هذا ولكن كل قرية على ماء وقال قتادة أما البر فاهل العمود وأما البحر فاهل القرى والريف قلت وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحراً فقال هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائح شرابه وهذا ملح أجاج وليس في العالم بحر حلو واقفاً وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد ظهر الفساد في البر والبحر قال الذنوب قلت أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد والنقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الارض بمعاصي العباد فكل ما أحدثوا ذنباً أحدث لهم عقوبة كما قال بعض الساف كل ما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله أعلم إن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حالنا وإنما إذا قمنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذنا كل أعمالنا

لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الارض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود فنعمهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من ابيارهم حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لتواضح الابل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات وقد ذكر الامام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا يثبت في زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فإذا أراد الله أن يظهر الارض من الظلمة والخبث والنجاسة ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملاً الارض قسطاً كما مائت جوراً ويقتل المسيح اليهود وانصارى ويقم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الارض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس اياً كانوا الرمانه ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير وابن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من اناس وهذا لان الارض المظهرة من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محققها الذنوب والكفر والارباب ان العقوبات التي أنزلها الله في الارض بقية آثارها سارية في الارض تطالب ما يشاء كلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الامم فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما ان هذه المعاصي من آثار الجرائم فتناست كلمة الله وحكمة الكوني أولاً وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجنابة والأخف الأخف وهذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء وتأمل مقارنة الشيطان ومجاهد ودارد فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزع البركة من عمره وعماده وقوله ورزقه وما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزع البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة

فصل في

ومن عقوباتها انها تطفي من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية

لحيات جميع البدن فان الغيرة حرارته ونارده التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكبر خبث الذهب والنضة والحديد وأشرف الناس وأعلامهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الأمة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف بأمة محمد ما أخذ أغير من الله ان يزني عبده أو تزني أمته وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال لأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أسماها كراهة التباع وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيrote يحب إن يعتذر إليه عبده ويقبل عذره من اعتذر إليه وأنه لا يؤخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعتذر اليهم ولأجل ذلك أرسل رساله وأنزل كتبه إعتذاراً وإنذاراً وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيراً ممن تشدد غيrote من المخلوقين بحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعتذار منه ومن غير قبول العذر ممن إعتذر إليه بل قد يكون له في نفس الامر عذر ولا تدعه شدة الغيرة ان يقبل عذره وكثير ممن تقبل المعاذير بحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذراً ما ليس بعذر حتى يعتذر كثير منهم بالمدح وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله فإني يبغضها الله الغيرة من غير ريبة وذكر الحديث وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعتذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد إن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من ذنابه ومن وافق الله في صفة من صفاته قاده تلك الصفة إليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمة وصيرته محبوباً له فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوي يحب المؤمن القوي وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف حتى يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفي بها عقوبة فان الخطرة تنقلب وبسوسة

والوسوسة تصير إرادة والارادة تقوي فتصير عنزيمة ثم نصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منهما كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف في القلب جداً لا يستقبح به ذلك القبيح لامن نفسه ولامن غيره واذا وصل الى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعو اليه ويحثه عليه ويسمي له في تحصيله ولهذا كان الديوث أحب خلق الله والخينة عليه حرام وكذلك محال الظلم والبغي لغيره ومزينه لغيره فانظر ما الذي حماه عليه قلة الغيرة وهذا يدل على ان أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميم القلب فتعمت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك ومثلاً مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولده فاذا تكسرت طمع فيها عدوه

فصل في

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء خير كله وقال ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وفيه تفسيران أحدهما انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح اذا الحمل على تركها الحياء فاذا لم يكن هناك حياء نزعته عن القبائح فانه يوافقها وهذا تفسير أبي عبيدة والثاني ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذي ينبغي تركه ما يستحي فيه من الله وهذا تفسير الامام أحمد في رواية ابن هاني فعلى الاول يكون تهديداً كقوله إعملوا ما شئتم وعلى الثاني يكون إذناً وإباحة فان قيل فهل من سبيل الى حماه على المعنيين قلت لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافات ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب إعتبار الآخر والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله والحامل على ذلك انسلخه من الحياء واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع واذا رأى ابايس طامعة وجهه

حياة وقال فديت من لايفاح والحياة مشتق من الحياة والغيث يسمى حيا بالقصر لان به حياة الارض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة فمن لاهياء فيه ميت في الدنيا شقى في الآخرة وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حيثما ومن استحي من الله عند معصيته استحي الله من عقوبته يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد شاء أم أبي ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحماني على المعاصي حسن الرجاء وطمهي في عفوه لضعف عظمته في قاي وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب والمتجرؤن على معاصيه ماقدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره وبجاهه من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرمانه ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر نجبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه اناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرمانه يعظم الناس حرمانه وكيف ينتهك عبد حرمان الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرمانه أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وأنه نسيم كانسوه وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له ومن يهن الله فما له من مكرم فأنهم ما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد إن أهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من أكرم

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجي معه نجاة قال الله يأياها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس

ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فامر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه واخبر أنه عاقب من ترك التقوي بان أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما يجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الابدية وكال لذتها وسرورها ونعيمها فانساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيماً لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الابدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنمائي سحابة صيف أو خيال طيف أحلام نوم أو كظلم زائل * إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم المقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حفظها ونصيها من الله وبيعها ذلك بالغبين والهوان وأبغض الثمن فضيع من لاغني له عنه ولا عوض له منه واستبدل به من عنه كل الغني أو منه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض * وايدس في الله أن ضيعت من عوض فالله سبحانه يعوض عن كل شيء ما سواه ولا يعوض منه شيء ويعني عن كل شيء ولا يعني عنه شيء ويعني من كل شيء ولا يمنع منه شيء ويعني من كل شيء ولا يمنع منه شيء كيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين وكيف يذني ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمعه من ثواب المحسنين فان الاحسان إذا باشر انقلب منه عن المعاصي فان من عبادة الله كأنه يراه لم يكن كذلك الاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كأنه يشاهده وذلك سبحانه بينه وبين إرادة المعاصي فضلاً عن موافقتها فاذا خرج من دائرة الاحسان فانه محبه رفقة الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام فان أراد الله به خيراً أقره في دائرة عموم المؤمنين فان عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يتهب نهبه ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين يذهبها وهو مؤمن بما يكف إياكم والتوبة معروضة بعد

٥٠ فصل ٥٠

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبته الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها فمنها الاجر العظيم وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة إن الله يدافع عن الذين آمنوا ومنها استغفار حملة العرش لهم الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ومنها موائت الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا ومنها أمر ملائكته بتبئيتهم إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة والله العزة ورسوله وللمؤمنين ومنها معية الله لأهل الايمان وإن الله مع المؤمنين ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومنها أعطاهم كفاي من رحمته وأعطاهم نوراً يمشون به ومغفرة ذنوبهم ومنها الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحبهم الى ملائكته وأنيابته وعباده الصالحين ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف فمن آمن وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نساله ان يهدينا الى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير وكل خير في الدنيا والآخرة فسيبه الايمان فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئاً يخرج به من دائرة الايمان ويحول بينه وبينه ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين فان استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن الاسلام بالكلية ومن هنا أشد خوف السلف كما قال بعضهم أتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر

٥٠ فصل ٥٠

ومن عقوبتها انها تضع سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتمطفه عن السير فلا تدعه يخطوا الى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته الى ورائه فالذنوب يجذب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية إنقطع عن الله إنقطاعاً يبعد تداركه

والله المستعان فالذنب أما يميت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً أو يضمف قوته ولا بد حتى ينهي ضمه الى الاشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي الهم والحزن والكسل والعجز والحين والبخل وضاع الدين وغلبة الرجال وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فان المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه يحدث الهم وإن كان من أمر ماض قد وقع يحدث الحزن والعجز والكسل قرينان فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح ان كان لعدم قدرته فهو العجز وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل والحين والبخل قرينان فان عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الحين وإن كان بماله فهو البخل وضاع الدين وقهر الرجال قرينان فان إسهاله الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال والمقصود إن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية كما إنها من أقوى الاسباب الجالبة جهنم البلاء ودرت الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء ومن أقوى الاسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس وتحول عاقبته وخجاة نعمته وجميع سيخطه

* فصل ١٠ *

ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتخل النعم فانك عن العبد نعمه الا لئلا ذنب ولا حات به نعمة الا بذنب كما قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ما نزل الا الا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعذوا عن كثير وقال تعالى ذلك بان الله لما يك غيراً نعمته انعمها على قوم حتى تغيروا ما أنعمهم فأخبر الله تعالى إنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ميثاقه فيغير طاعة الله بعبادته وشكره بكفره وأسباب رصاده بأسباب سيخطه فإذا غير غير عليه جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه التقوية بالعبادة والذل بالعز قال تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وفي بعض الآثار الأثرية عن الرب تبارك وتعالى إنه قال وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا إنتقلت له مما يحب عبيدي إلى ما أكره ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره فينتقل عنه إلى ما أحب إلا إنتقلت له مما يكره إلى ما يحب وقد أحسن القائل

إذا كنت في نعمة فارعها * فان الذنوب تزيل النعم

وخطها بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النعم

(٧ - الدواء)

وإيك والظلم مهما إستطعت * فظلم العباد شديد الوحى
وسافر بقلبك بين الورى * لتبصر آثار من قد ظلم
فلك مساكنهم بعدهم * شهود عليهم ولا تنهم
وما كان شئ عليهم اضر * من الظلم وهو الذي قد تصم
فكم تركوا من جنان ومن * قصور وأخرى عليهم اطم
صلوا بالجحيم وفات الزم * وكان الذي نالهم كالحلم

فصل ❦ ❦

ومن عقوباتها ما يقيه الله سبحانه من الرعب والخوف فى قلب العاصي فلا تراه الا خائفاً
مرعوباً فان الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة
ومن خرج عنه انحطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله إنقلب المخوف فى حقه أماناً ومن
عصاه إنقلب مأمناً مخاوف فلا تجد العاصي إلا وقابه كانه بين جناحي طائر ان حركت الريح
الباب قال جاء الطلب وان سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب يحسب كل صيحة
عليه وكل مكروه قاصد اليه فن خاف الله آمنه من كل شئ ومن لم يخف الله أخافه من كل شئ
بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلتوا * إن المخاوف والاجرام فى قرن

ومن عقوباتها انها توقع الوحشة العظيمة فى القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشاً قد وقعت
الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت
الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين وأطيب العيش عيش المستأنسين فلو
نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله
وعظيم غيبه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف
اذا كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الانس
والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة ولهذا يجد العبد وحشة بينه
وبين عدوه للبعد الذي بينهما وإن كان ملابساً له قريباً منه ويجد أنساً قوياً بينه وبين من
يحب وإن كان بعيداً عنه والوحشة سبب الحجاب وكلما غاظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة
توجب الوحشة واشد منها وحشة المعصية واشد منها وحشة الشرك الكفر ولا تجد أحداً
يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ملابسه منه فقلو الوحشة وجهه
وقلبه فيستوحش ويستوحش منه

فصل في

ومن عقوباتها أنها تصرف القاب عن محنته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه فإن تأثير الذنوب في القلوب كثرة الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب ودائها ولادواءها إلا تركها وقد أجمع السائررون إلى الله أن القلوب لا تعطي منها حتى تصل إلى مولاها ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سائمة ولا تكون صحيحة سائمة حتى ينقلب دأؤها فتصير نفس دوائها ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفة فمن استحكمت المرض قتل أو كاد وكان أن من نهي نفسه عن الهوى كانت الجنة ماواد كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعم أهلها نعم الجنة بل التماوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعم الدنيا والآخرة وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا ولا تحسب أن قوله تعالى إن الأبرار في نعم وإن النجار في جحيم مقصور على نعم الآخرة وجحيمها فقط بل في دورهم الثلاثة كذلك أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار فهؤلاء في نعم وهؤلاء في جحيم وهل النعم إلا نعم القاب وهل العذاب إلا عذاب القاب وأي عذاب أشد من الخوف والهجم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعامته بغير الله وانقطاعه عن الله بكل واحد منه نعمة وكل نبي تعاقب به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار فهو يعذب به ثلث حصوله حتى يحصل فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سابه وفواته والتنقيص والتكيد عليه وأنواع المعارضات فإذا سابه أشد عذابه عليه فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجي عوده وألم فوات ما فاته من النعم العظيم بالاشتغاله بضده وألم الحجاب عن الله وألم الحسرة التي تقطع الأكباد فاطهم والنم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم بغير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها حينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر فأين هذا من نعم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره حتى يقول بعضهم في حال نزعه واطرباه ويقول الآخرون إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال أنهم في عيش طيب ويقول الآخرون ساكنين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيق العيش فيها وما ذاقوا أظيب ما فيها ويقول الآخرون لو علم الملوك أبناء الملوك ما نحن فيه لجادونا

عليه بالسيوف ويقول الآخر ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة
فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قد غبن
اذالم يكن لك خبرة بقيمة الساعة فاسئل المقومين فياعجبوا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها
جنة المأوي والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو
الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بعها بغاية الهوان

اذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذلّه من بعد ذلك يكرم

ومن يهن الله ذلّه من مكرم ان الله يفعل ما يشاء

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها انها تعمي بصير القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية
وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك الخيالات اني ارى الله
تعالى قد اتقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل
وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه وهو
لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فياعززة السلامة ويأسرة العطب
ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشي الوجه منها سواد بحسب
قوتها وتزايدها فاذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلاً القبر ظلمة كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم ان هذه القبور ممتلئة على اهلها ظلمة وان الله ينورها بصلاتي عليهم فاذا كان
يوم المماد وحشر المباد وعلت الظلمة الوجود علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه
أسود مثل الحمرة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها فكيف
يقسط العبد المنفص المتكبد المتعب في زمن اثنا هو ساعة من حلم والله المستعان

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها انها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء
وأحققره كما ان الطاعة تنمها وتزكها وتكبرها قال تعالى قد أفلح من زكاه وقد خاب من
دساها والمعنى قد أفلح من كبرها وأغلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسرت من أخفها وأحققرها
وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنه قوله تعالى يدسه في التراب فالعاصي يدس
نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخالق من سوء ما يأتي به قد انقمع عند نفسه
وانقمع عند الله وانقمع عند الخالق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير
أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أدل شيء وأحققره وأصغره لله تعالى

وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والتمو فاصغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله

فصل ١٠

ومن عقوباتها أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيوده هو انه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسرد أعدى عدوله ولا سجن أخيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قال ماسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا قيد القاب خرقه الآفات من كل جانب بحسب قيوده ومثل القاب مثل الطائر كما علا بعد عن الآفات وكما نزل استوحشه الآفات وفي الحديث الشيطان ذئب الانسان وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريمة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وحنة حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة وكما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئاب وكما بعدت عن الراعي كانت أقرب الى الهلاك فاحمي ماتكون الشاة إذا قربت من الراعي وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم وهي أبعدهن من الراعي وأصل هذا كاه إن القلب كما كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع وكما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات والبعد من الله مراتب بعضها أتد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد الشرك أعظم من ذلك كله

فصل ١١

ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فإذا عصاه وخالف امره سقط من عينه فاسقطه من قلوب عباد الله وإذا لم يبق له جاد عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك فمات بينهم أسوء عيش خال الذكر ساقط القدر ذرى الخال لآحرمة له فلا فرح له ولا سرور فإن خول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الالم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلى قدره ولهذا خص أنبياءه ورساله من ذلك بما ليس بغيرهم كما قال تعالى وأذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والابصار أنا أخلصناهم بخالصة ذكر الدار التي خصصناهم

بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار وهو لسان الصدق الذي سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخريين وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً وقال لبيبه صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فإنه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصفار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والذقي والمطيع والنتيب والولي والورع والمصلح والعابد والخائف والابواب والطيب والرضى ومحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والحديث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللاوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الحزى والهوان وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمي بها على سائر أنواع الانسان نلو لم يكن في عقوبة المعصية الا إستحقاق تلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ولو لم يكن في ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها ولكن لا مانع لما أعطى الله ولا ممتطى لما منع ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ومن بين الله فانه من مكرم إن الله يفعل ما يشاء

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها إنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الا وعقل المطيع منهما أو فر وأكمل وفكره أصح ورأيه أمد والصواب قرينه ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول كقوله فاتقوا الله يا أولي الألباب وقوله فاتقوا الله يا أولي الألباب وقوله وما يذكر الا أولوا الألباب ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يصي من هو في قبضته وفي داره وهو يعلم إنه يراه ويشاهده فيمضيه وهو بعينه غير متوار عنه ويستعين بنعمه على مساخطه ويستدعي كل وقت غضبه عليه واخته له وإبعاده من قربه وطرده عن بابه وإعراضه عنه وخذلانه له والتخليه بينه وبين نفسه وعدوه وسقوطه من عينه وحرمانه وروح رضاه وحيه وقررة العين بقربه والفوز بجواره والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه الى أضعاف أضعاف ذلك

من كرامة أهل الطاعة وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية فأي عقل من آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والنور العظيم بل هو سعادة الدنيا والآخرة ولو لا العقل الذي تقوم عليه به الحججة لكان بمنزلة المجانين بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة فهذا من هذا الوجه وأما تأثيرها في نقصان العقل العيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان اظهر لمطينا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة والجنون فنون وباعجاب وصحت العقول لعلمت أن الطريق الذي يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاه من النعم كله في رضاه والالم والعذاب كله في سخطه وغضبه ففي رضاه قرحة العيون وسرور النفوس وحياة القلوب ولذة الأرواح وطيب الحياة ولذة العيش وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تنف به بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه وجمع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والاحزان والمعارضات بل قد حصل له على النعميين وهو ينظر نعيمين آخرين أعظم منهما وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام فالامر كما قال سبحانه إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبر والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم وانهم وأعداءهم جهنم وساءت مصيراً

فصل في

ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشرفاءي فلاح وأي رجاء وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفه عين ولا بدل له منه ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ووصل ما بينه وبين أعداء عدوله فتولاه عدوه وتخلي عنه وليه فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب قال بعض السلف رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فان أعرض الله عنه تولاه الشيطان وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان وقد قال تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً يقول سبحانه لعلباداً أنا أكرمتم آباكم ورفعت قدره وفضلته على غيره فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريعاً

فاطاعوني وابي عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تخذونه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في مصيبي وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعداء عدولكم فواليتم عدوي وتد أمرتكم بمعاداته ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالات أوليائه وأما إن توالى أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب فكيف يابق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو واهيه ومولاه الذي لا مولى له سواء ونبه سبحانه على تبجح هذه الموالات بقوله وهم لكم عدو وكأنه على قبحها بقوله تعالى فسق عن أمر ربه قتين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته فما هذه الموالات وما هذا الاستبدال بأس للظالمين بدلاً ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفاً عجيباً وهو أنني عادت إبليس إذ لم يسجد لآبائكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادات أن عقدتم بينكم وبينه عقداً المصالحة

فصل في

ومن عقوباتها أنها تحقق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تحقق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصي الله وماحمت البركة من الأرض إلا بما صي الخاق قال الله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لفتنهم فيه وأن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته وإن الله جعل الروح والنرح في الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد أنا الله إذا رضيت باركت وأيس ابركتي منهي وإذا غضبت لغنت ولعنتي تدرك السابع من الولد وليست سعة الرزق والعمل بكثرة ولا طول العمر بكثرة الشهور والاعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره بل حياة البهائم خير من حياته فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فطره ومحبه وعبادته وحده أو الانابة إليه والطهانية بذكره والانس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الحير كله ولو تموض عنها بما تموض به في الدنيا بل ليست

الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لا يموت والمخلوق عن الخالق ومن لا وجود له فلا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكاله ووجوده ورحمته من نوازم ذاته وكيف يعوض من لا يملك مقال ذرة سمن له ملك السموات والأرض وإنما كانت موصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل لأن الشيطان موكل بها وأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محجورة ولهذا شرع ذكر إسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة إسم الله من البركة وذكر إسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه وكما نسب إليه مبارك فكلامه مبارك ورسوله مبارك وعبيده المؤمن النافع لخلقهم مبارك وبيته الحرام مبارك وكنائسه من أرضه وهي الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ولا مبارك إلا ما نسب إليه أعني إلى محبته وألوهيته ورضاه وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخالقه وكما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه وضد البركة اللعنة فأرض لعناتها أو شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة وكما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة وقد لعن عدوه إبليس وجمعه أبعد خالقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه وإتصاله فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل فكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصي الله به أو بدن أو جاد أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعامه وعمله إلا ما أطاع الله به وإلهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم الدنيا ماعونة ماعون مافها إلا ذكر الله عز وجل وما والاد أو عالم أو متعلم وفي أثر آخر ماعونة ماعون مافها إلا ما كان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد ان كان مهيباً لان يكون من العلية فان الله خلق خلقه قسمين عليّة وسفلة وجعل عليين مستقر العلية وأسفل سافلين مستقر السفلة وجعل أهل طاعته الاعليين في الدنيا والاخرة وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والاخرة كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه وأهل معصيته أهون خلقه عليه وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال جعلت الذلة والصغار على من خالف أمري وكما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال في نزول حتى يكون من الاسفلين وكما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الاعليين وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والارض ولا يفي، بصعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلتقي لها بالاهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب فأي صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة فهذا متى استيقظ من غفلة عاد الى درجته أو الى أرفع منها بحسب يقظته ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوي به الاستمالة على الطاعة فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته وقد لا يصل اليها وقد يرتفع عنها فانه قد يعود أعلى همة مما كان وقد يكون أضعف همة وقد تعود همة كما كانت ومنهم من يكون نزوله الى معصية إما صغيرة أو كبيرة فهذا يحتاج في عوده الى درجته الى توبة نصوح واثابة صادقة واختاف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التي كان فيها بناء على ان التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كمنه فكانه لم يكن أولاً يعود بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة وأما الدرجة التي فاتته فانه لا يصل اليها قالوا وتقرير ذلك انه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه اصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه وكلما تضاعف المال تضاعف الربح فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله فاذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل الى أعلى وبينهما يون عظيم قالوا ومثل ذلك

رجالان مرتبان في ساهين لانهما لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ثم اتانف الصعود فان الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكماً مقبولاً فقال التحقيق ان من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ومنهم من يعود الى من مثل درجته ومنهم من لا يصل الى درجته ومنهم من يعود الى درجته قلت وهذا بحسب قدر التوبة وكما لها وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله وقد تقرى على هذه الامور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعته خذ ضراوته وذلته وإنكساره على عتبة باب سيده ومولاه وعرفته تدره واشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ومولاه والى عفوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بها أو يري نفسه بها خيراً من غيره وأوقفته بين يدي ربه موقف الخاطئ المذنب ناكس الرأس بين يدي ربه مستجياً خائفاً منه وجلاً محتقراً لطاعته مستعظماً لمصيبته عرف نفسه بالنقص والذم وربّه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل استأثر الله بالوفى وبالحم * د وولي الملامة الرجال

فصل في

في نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلاً لها وأي نعمة أولية وصلت اليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن اليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه فان ما يستحقه من العقوبة لا يحمله الجبال الراسيات فذلا عن هذا العبد الضعيف العاجز فان الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذي لا شيء أعظم منه الكبير الذي لا شيء أكبر منه الجليل الذي لا أجل منه ولا أجل الميم بجميع أنواع النعم دقيقتها وجليلها من أقبح الامور وافظها واشنعها فان مقابلة العظماء والاجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستعجبه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل الناس واسقطهم مرؤة من قابهم بالرزائل فكيف بعظيم السموات والارض وملك السموات والارض وإله أهل السموات والارض ولولا أن رحمته سبقت غضبه ومغفرته سبق عقوبته والالتزمت الارض بمن قابله بما لا تليق بمقابله به ولولا حلمه ومغفرته لزال السموات والارض من معاصي العباد قال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً فتأمل حتى هذه الآية

بأسمين من أسماؤه وهما الحليم والنفور كيف تجد تحت ذلك انه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والارض وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده انه تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الارض ونخر الحياض هدا وقد أخرج الله سبحانه الأيون من الجنة بذنوب واحد ارتكبا وخالفا فيه نبيه ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنوب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ونحن معاشر الحقاء كما قيل

نصل الذنوب الى الذنوب ونرتجي * درج الجنان لذي النعم الخالد

ولقد عامنا أخرج الأيون من * ملكوتها الأعلى بذنوب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزيمته وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على إعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته هذا كله إذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى أمر يقدر في أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذلك نزول لا يرجي لصاحبه صعوداً لا يجد إلا لامة من رأسه

فصل في

ومن عقوباتها أنها تجتري على العبد ما لم يكن يجتري عليه من أصناف المخلوقات فتجتري عليه الشياطين بالأذى والاعواء والوسوسة والتخويف والتمرير وإنسانه ما صلاحته في ذكره ومضرته في نسيانه فتجتري عليه الشياطين حتى تؤزده الى معصية الله أزاً وتجتري عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره وتجتري عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف اني لاعصي الله فاعرف ذلك في خالق امرأتي ودائتي وكذلك تجتري عليه أولياء الامر بالعقوبة التي ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود وتجتري عليه نفسه فتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبي وذلك لان الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين فاذا فارق الحصن اجتري عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجترائه هذه الآفات والنفوس عليه وليس شيء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وإرشاد الجاهل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فاذا سقطت القوة غلب وأرد المرض وكان الهلاك ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للتائب كما تقدم وكما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم

فان الله يدافع عن الذين آمنوا والايمن قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان

فصل في

ومن عقوباتها أنها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فإن كل أحد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأقواهم وأكسبهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعمالها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهمهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة وأرشدهم من آثر هذه على هذه كما ان أسئلتهم من عكس الأمر والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم وإبناز الخط الأشرف العالی الدائم على الخط الخسيس الأدنى المنقطع فتجذبه الذنوب عن كمال هذا العلم ومن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين فاذا وقع في مكروه واحتاج الى التخلص منه خافه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا يجذب مع صاحبه اذا جذبته فعرض له عدو يريد قتاله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فدهمه العدو وظفر به كذلك القاب يصدي بالذنوب ويصير مثقلاً بالمرض فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجده معه شيئاً والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تتبع القاب فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها الظن بها عند عدم تلكها وكذلك النفس فانها تجذب بالشهوات والمعاصي وتضعف أعني النفس المعطشة وإن كانت الامارة تقوى وتتأسد وكلما قويت هذه ضعفت هذه فبقي الحكم والتصرف الامارة وربما ماتت نفسه المعطشة موتاً لا يرجي معه حياة فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ياتفح بها بل حياته حياة يدركها الألم فقط والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بآية خافه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له فلا يجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والابانة اليه والجمية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكرك وان ذكره لسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا يجذب القاب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا يجذب اللسان والقلب على المذكور بل إن ذكر أو دعا ذكر بقاب غافل لاد ساه ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي كمن له جند يدفع عنه الأعداء فاهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستقرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة هذا وهم أمر أخوف من

ذلك وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله تعالى
 فربما تندر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى
 قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها وقيل لا آخر قل لا إله
 إلا الله فقال شاه رخ غلبتك ثم قضى وقيل لا آخر قل لا إله إلا الله فقال
 يارب قاتلة يوماً وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجباب

ثم قضى وقيل لا آخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالفناء ويقول تانا ننتنا
 فقال وما ينفعني ماتقول ولم أدع معصية الا ركبها ثم قضى ولم يقلها وقيل لا آخر ذلك
 فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قضى ولم يقلها وقيل لا آخر
 ذلك فقال هو كافر بما تقول وقضى وقيل لا آخر ذلك فقال كلما أردت أن أقولها
 فإسأني بمسك عنها وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس
 لله فليس حتى قضى وأخبرني بعض التجار عن قرابة له انه احتضر وهو عنده فجعلوا
 يلقتونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشتري جيد هذه صكنا
 حتى قضى وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفي عليهم من أحوال
 المحتضرين أعظم وأعظم وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال
 إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريد من المعاصي وقد أغفل قلبه عن
 ذكر الله تعالى وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته فكيف الظن به عند سقوط
 قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمة وحشد
 عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرضته فان ذلك آخر العمل فاقوي ما يكون عليه
 شيطانه ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة فمن تري يسلم على ذلك فهناك
 يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل
 الله ما يشاء فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتباع هواه
 وكان أمره فرطاً فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مصير لشهواته
 ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطاة من طاعته مشتغلة بمعصية الله أن يوفق لحسن
 الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيماً بالآيمان
 أم لكم آيمان علينا بالغة الي يوم القيامة ان لكم لما تحكمون سلمهم أيهم بذلك زعيم
 ياأما من قبيح الفعل يصنعه * هل أنك تواقع أم أنت تملكه
 جمعت شيتين أمناً واتباع هوى * هذا وإحداها في المرء تهلكه
 والمحسنون على درب المخاوف قد * ساروا وذلك درب لست تملكه

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه * فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك في * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذا بالله أنت أم السعغبون في البيع غبنا سوف تدركه

فصل في

ومن عقوباتها أنها تعمي القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذ نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته فإن كمال الإنسان مداره في أصلين معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة لا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أنبى الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار فالأيدي القوة في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى القسم الثاني عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قدي للعيون ورحمي الأرواح وسقم القلوب يضيقون الديار وينقلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار القسم الثالث من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذ ولا الدعوة إليه وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه القسم الرابع من له قوة وهما وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان بل بحسب كل سوداء تمررة وكل بيضاء شحمة بحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضعاً لها سوي القسم الأول قال الله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فاخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالمصر الذي هو زمن سعى الخاسرين والرائحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى والعصير إن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فلم يكتف منهم معرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضاً ويرشده إليه ويحثه عليه فإذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين معلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس

إدراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً أو المنكر معروفاً فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلات التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقاءه ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية إلى تركها والبعد منها والله المستعان وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلبوه وتعقاه وتقويه وتنبه حتى يصير كالأرآة المجلوة في جلالها وصفائها فيتملي نوراً فإذا ذني الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد حتى أن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ماشأه فيقال أصابه أنبي وبه نظرة من الأنس فيانظرة من قلب حرم نور * يكادها الشيطان بالنور يحرق

أفستوي هذا القلب وتلب ظلم أرجؤه مختلفاً أهواؤه قد أخذ الشيطان وطنه وأعدمه ممكنه إذا أصبح بطاعته حياء وقال فديت من لا يضح في دنياه ولا في أخراه
انقرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها * فانت قرين لي بكل مكان
فان كنت في دار الشقاء فاني * وانت جيبا في شقا وهوان

قال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فأخبر سبحانه أن من عشي عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبارك فيه فأعرض عنه وعمى عنه وغشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قبض الله له شيطاناً عقوبة له في إعراضه عن كتابه فهو قرينه الذي لا يفارقه لافي الإقامة ولا في المسير ومولاه وعشيرته الذي هو بنس المولى وبنس العشير

رضيبي ابان تدي أم تقاسما * بأسحهم واج عوض لايتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ويحسب هذا الضال المضل العمدود أنه على طريق هدي حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لي في الدنيا أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني وصدتني عن الحق وإغويتني حتى هلكت وبنس القرين أنت لي اليوم ولما كان المعاب إذا شاركه غيره في مصيبة حصل بالتأسي نوع تخفيف وتسوية أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشركين في العذاب وأن

القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قريبه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت
صارت مسلاة كما قالت الخساء في أخيها صخر

ولو لا كثرة الباكين حولي * على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن * أغري النفس عنه بالناسي

الأيام صخر لأنك حتى * أفارق عيشتي وورود رمسي

فنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال وان ينفعكم اليوم إذ

ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها إنها مدد من الإنسان بمدد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه
وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بمدد لا يفارقه طرفه عين صاحبه ينام ولا ينام
عنه ويفضل ولا يفضل عنه يراد هو وقبيله من حيث لا يراد يبذل جهده في مآداته بكل
حال ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إبعاده إليه إلا أوصاه ويستعين عليه باني جنسه من
شياطين الأنس وغيرهم من شياطين الجن وقد ادب له الجبائل وبني له الغوائل ومد
حوله الأشراك ونصب له الفخاخ والشباك وقال لأعدائه دونكم عدوكم وعدو أبيكم
لا يفوتكم ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة وقد علمتم
إن ما جرى علي وعاليكم من الحزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله فابذلوا
جهدكم أن تكونوا شركائنا في هذه البلية إذ قد فلتنا شركاءهم في الجنة ولما علم سبحانه
أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وساطوا عليهم أمدهم بمساكر وجند يلقون بها وأمد
عدوهم أيضاً بجند وعساكر يقاتلهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي
هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفسها واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم
بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وأخبر أن ذلك وعد مؤكداً عليه
في أشرف كتبه وهي التوراة والإنجيل والقرآن ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه
ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري
من هو وإلى الثمن المبذول في هذه السعة وإلى من جرى على يديه هذا العقد فاي فوز
أعظم من هذا وأي تجارة أربح منه ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله يا أيها الذين آمنوا
هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل
الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات

(٩ - الدواء)

تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ولم يسلب سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة ثم تسبحانه لواء هذا الحرب خلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي محل معرفته ومحبه وعبوديته والاحلاص له والتوكل عليه والابابة إليه فولاه أمر هذا الحرب وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه له معتبات من بين يده ومن يخافه يحفظونه من أمر الله يعقب معظمهم بعضاً كما جاء جند وذهب جاء بده آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونهم بكرامة الله ويصبرونه ويقولون إننا هوصبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه فإرسال إليه رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل إليه كتابه فإزداد قوة إلى قوته ومددا إلى مدده وعدة إلى عدته وأمدته مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصره وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يماين ما وعد الله تعالى أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه فالعقل يدبر أمر جيشه والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائمه بها والإيمان يثبتته ويقويه ويصبره واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ثم مد سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة فجعل العين طليعة والأذن صاحب خبرة واللسان ترجمانه واليدين والرجلين أعوانه وأقام ملائكته وحماة عرشه يستغفرون له ويسئلون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفاجحون وهؤلاء جنده وإن جنودنا لهم الغالبون وعلم عباده كيفية هذا الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ولا يمت أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة فلا يتم الصبر إلا بالصبر العدم وهو مقاومته ومنازاته فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة وهي لزوم نقر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم نقر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل فهذه الثغور يدخل منه العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخفى مكانها فيصادف العدو والثغر خالياً فيدخل منها فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم وقد خلوا المكان الذي أمروا بلرومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان وإجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر

فانظر الآن فيك الى النقاء الحديثين واصطدام العسكرين وكيف تداله مرة ويدال عليك
 أخري أنبل ملك تكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته
 أمره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به يقاتلون عنده ويدافعون عن حوزته فلم يتمكنهم
 الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه فسأل عن أخص الجند به وأقربهم من
 منزلة فقيل له هي النفس فقال لأعوانه أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها
 وما هو محبوبها فعدوها به ومزوها ايادوا وتشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومناها فإذا اخطأت
 اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاب الشهوة وخطاطيفها ثم جرورها بها اليكم فإذا
 خامرة على القاب وصاروا معكم عليه ممالككم ثمر العين والاذن واللسان والضم واليد والرجل
 فربطوا على هذا الثغور كل المرابطة فتمت دخام منها الى القاب فهو قبيل أو أسير أو جريح
 مشخن بالجراحات ولا تخلوا هذه الثغور ولا تتكفوا سرية تدخل منها الى القاب فتخرجكم
 منها وان غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها حتى لا تصل الى القاب فان وصلت اليه
 وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً فإذا استوليم على هذه الثغور فادعوا ثمر العين أن يكون
 نظره إعتباراً بل أجعلوا نظره تفرحاً واستحساناً وتامها فان استرق نظره عبرة فافسدوه
 عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فإنه أقرب اليه وأعاقق بنفسه وأختب عليه ودونكم
 ثمر العين فان منه تنالون بغيركم فاني ما أفستت بني آدم بشيء مثل النظر فاني أبتد به في
 القاب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمانة ثم لأزال أعده وامنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده
 بزمام الشهوة إلى الخلاع من العصاة فلا تهلوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم
 وهونوا عليه أمره وقولوا له مقدار نظره تدعوك الى تسريح الخالق والرازق البديع
 والتأمل والتجمل صفوا وحسن هذه الصورة التي إنما خاقت استبدالها الناظر عليه وما خاق الله
 العينين سدي وما خاق الله هذه الصورة ايحجها عن النظر وإن ظفرتم به قایل العلم فاسد
 العقل فقولوا له هذه الصورة ظاهرة من مظاهر الحق ومجبي من مجاليد فادعوا الى القول بالانحداد
 فان لم يقبل فاقولوا بالحلل العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فإنه يصير به من
 إخوان التصاري فرود حينئذ بالعفة والعيانة والعبادة والزهد في الدنيا واصطادوا عليه
 الجهال فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي بل أنا من جنده وأعوانه

- (فصل) -

ثم أمنعوا ثمر الاذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر فاجتهدوا أن لا تدخلوا
 منه الا الباطل فإنه خفيف على النفس تستحايه وتستماجه وتخبروا له أعذب الالفاظ

وأسحرها للالباب أمزجود بما تهوي النفس مزجاً وألقوا الكلمة فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزيدوه باخوانها فكلاماً صادقاً منه استجسان شيئا فلهجوا له بذكره وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام الصحابة فإن غابتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبروا والتفكر فيه والعظة به إما بادخال ضده عليه وإما بتحويل ذلك وتعظيمه وإن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه وهو حمل ثقل عاينها لا تستقل به ونحو ذلك وإما بارخاضه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم وأغرب عندهم وزبونه أكثر وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغي والرجح بين الناس أولى بالابتعاد ونحو ذلك فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عنرات الناس والتعرض من البلاء ما لا يطيق وإنهاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ويخرجون اتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ويسمون علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ومبانيته لخلقاته تحيزاً ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله من يسأني فاعطيه تحركاً وانتقالاً ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أضاء وجوارح ويسمون ما يقوم به من أعماله حوادث وما يقوم من صفاته أعراضاً ثم يتوصلون إلى نبي ما وصف به نفسه بهذه الأمور ويوهمون الأعمار وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه الأمور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التزييه والتعظيم وأكثرت الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء باللفظ ويردونه بعينه باللفظ آخر قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً فسماء زخرفاً وهو القول الباطل لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويناقشه إلى سمع المغرور فيغتر به والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه وإن دخله بغير اختياره أفسد عليه

فصل في

ثم يقول قوموا على نعر اللسان فانه النعر الاعظم وهو قبالة الملك فاجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وانعمود أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحته عباده او التكلم بالعلم النافع ويكون لكم في هذا النعر اثران عظيمان لا يتالون بايهما ظفرتم أحدهما التكلم بالباطل فانما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعدوانكم الثاني السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق وربما كان الاخ الثاني أنفع إخوانكم لكم أما سعة قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخرس فالرباط الرباط على هذا النعر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل وزيّنوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق واعلموا يا بني ان نعر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبرهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قبل وأسير وجريح أخذته من هذا النعر وأوصيكم بوصية فاحفظوا لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ويكون الآخر على لسان السامع فيتعلق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ويطلب من أخيه إعادتها وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وأدخلوا عليهم من كل باب واقعدوا لهم كل مرصد أما سعة قسيمي الذي أقسمت بالربهم حيث قامت فيها أغويتني لا فعدن لهم صراطك المستقيم ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا يجدوا كثرهم شاكرين أما روني قد عدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتني من ضرائق الأعدت له من طريق غيره حتى أسبت منه حاجتي أو بعضها وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم إن الشيطان قد عدت لابن آدم بطرقه كلها فعد له بطريق الإسلام فقال له إن سلم وتذر دينك ودين آبائك نخالفه وأسلم فعد له بطريق الهجرة فقال أمهاجر وتذر أراضك وسماك نخالفه وهاجر ثم فعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتسكح الزوجة نخالفه وجاهد فمكدا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير فإذا أراد أحدكم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له في نفسه أخرج المال وتبقي مثل هذا السائل وتصير بمنزلة أنت وهو سواء أو ما سعتهم ما لقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال أمواتنا إذا أعطينا كوهنا صرنا مثلكم واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له طريقه مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتفكير منها وذكر صعوبتها وآفاتنا ثم أقعدوا على المعاصي فحسبوا في عين بني آدم وزينوها في قلوبهم

واجتمعوا أكر أعدائكم على ذلك الساء من أوابير فادخلوا عليهم فقم العيون هن لكم
ثم الرمووا نقر اليد من والر جان فادعوا لها ان تظن بما يضركم أو تمنى فيدوا عاموا إن أكر
أعدواكم على لروم هذه الثغور مصالحة النفس الامارة فاعينوها واستعينوا بها وأمدوها
واستعدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة فاجتهدوا في كسرهما وإبطال قواها
ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الامارة
وظاعت لكم أعوانها فاستزلوا الثاب من حسنه وأعزود عن مملكته وولوا مكانه النفس
فانها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تحبكم بما تكرهونه البتة مع إنها لا تخالفكم في شيء
تشيرون به عليها بل إذا أمرتم عليها بشيء بادرت إلى فعهه فان أحسستم من القاب منازعة
إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعتقدوا بينه وبين النفس عقد الكساح فزينوها وجعلوها
وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد وقولوا له ذق حلالة طعم هذا الوصال والتمتع
بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعم والضرب ثم وازن بين اذنة
هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضي وإنما
هو حرب متصل بانوت وقوال يضمف عن الحرب دائم واستعينوا يابني بجند عظيمين
ان تغلبوا معهما أحدهما جند الغفلة فاعقلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة
بكل طريق فليس لكم شيء أبغ من تحصيل شرخكم من ذلك فان القاب إذا غفل عن
الله تعالى تمكنت منه ومن أعوانه الثاني جند الشهوة فزينوها في قلوبهم وحسنوها في
أعينهم وصولوا عليهم بهذين العسكرين فليس لكم في بني آدم أبغ منهما واستعينوا على
الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة وأقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر
ولا يغلب واحد خمسة فان مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم
وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم
تقدوروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الانس البطالين فقومهم منهم وشوشوا
عليهم بهم وبالجملة فاعدوا الامور اقرباها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب
إرادته وشهوته فساءدوه عليها وكونوا له أعوانا على تحصيلها وإذا كان الله قد أمرهم
بالصبر أن يصبروا لكم ويصبرونكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أتم وصابروا وربطوا
عليهم بالثغور واتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم
من هذين الموظفين واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه
ضعيف مقهور فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ومنهم من يكون سلطان
الغضب عليه أغلب فلا تخنوا طريق الشهوة عليه ولا تعطلوا ثمرها فان من لم يملك نفسه

عند الغضب فانه بالحري ان لا يملكها عند الشهوة فزوجوا بين غضبه وشهوته وأمرجوا أحدهم بالآخر وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب وإلى الغضب من طريق الشهوة واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين وإنما أخرجت ابويهم من الجنة بالشهوة وإنما أقيت العداوة بين أولادهم بالغضب فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم وبه قتل أحد ابني آدم أخاه واعلموا إن الغضب حجرة في قلب ابن آدم والشهوة نار تشور من قلبه وإنما تطفي النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير وإياكم أن تتمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الضوء والصلاة فان ذلك يطفي عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم بنبيهم بذلك وقال إن الغضب حجرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من إحمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ وقال لهم إنما تطفي النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك وانسوهم إياه واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب وأبلغ أساحتكم فيهم وأنكأها الغنائة واتباع الهوى وأعظم أساحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى فاذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه والمقصود ان الذنوب والمعاصي سلاح ومدد بمد بها العبد أعداءه وبعينهم بها على نفسه فيقاتلون به سلاحه والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل قال ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسي بنفسه في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجهد في حرمانها من حظوظها وإشرافها وهو يزعم أنه يسي في حظها ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيها وهو يزعم أنه يسي في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها وكان بعض السلف يقول في خطبته الأرب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراعى لحقها وكفي بالمرأ جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعاله ما لا يبيانه عدوه والله المستعان

فصل في

ومن عقوباتها أنها تنسى العبد نفسه فاذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فان قيل كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكره وما عني نسيانه نفسه قيل نعم ينسى نفسه أعظم نسيان قال تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فلما نسوا ربهم سبحانه نسيتهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى نسوا الله فأنساهم أنفسهم فمما قرب

سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما أنه سبحانه نسيه والثانية أنه أنساه نفسه ونسيانه سبحانه
 للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه فالهلاك أدنى إليه من اليد للقم وأما إنساؤه
 نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكملها ينسيه ذلك
 كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يحماه على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه فانه لا يمر
 بباله حتى يتصدده ويؤثره وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات فلا يخطر بباله إزالتها
 وإصلاحها برأياً فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي
 في إزالة آلامها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك فهو مريض مشغن بالمرض ومرضه
 مترام به إلى التلف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته وهذا من أعظم العقوبة للعامة
 والخاصة فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها
 وأسباب سعادتها وإصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم ومن تأمل هذا الموضع
 سين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله
 وباعوها رخيصة بثمن نجس الغبن وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ويظهر هذا كل الظهور
 يوم التغابن يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار والتجارة التي
 أبحر فيها لمعاده فان كل أحد يجبر في هذه الدنيا لآخرته فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم
 أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طبيعتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم
 فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها
 وكان سهمهم لتخصياتها فباعوا واشتروا وانجروا وباعوا آجالاً بما جلا ونسيته بنقد وغائباً ناجز
 وقالوا هذا هو الزهرة ويقول أحدهم خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فكيف أبيع حضراً
 تقدأشاهداً في هذه الدار بغائب نسيته في دار أخرى غير هذه وينضم إلى ذلك ضعف
 الايمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس فأكثر الخلق في هذه التجارة
 الخاسرة التي قال الله في أهلها أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم
 العذاب ولا هم ينصرون وقال فيهم فمأبجت تجارتهم وما كانوا مهتدين فاذا كان يوم التغابن
 ظهر لهم الغبن في هذه التجارة فتنقطع عليهم النفوس حسرات وأما الرابحون فانهم باعوا
 قانياً بباقي وخسيساً بنفيس وحقيراً بعظيم وقالوا ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها
 حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن
 القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لانسيته له إلى دار القرار البتة قال تعالى ويوم
 نحشرهم كأن لم يلبسوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى يسألونك عن الساعة

أبان مرساها فيم أنت من ذكرها الى ربك منهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا غشية أو سخاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ وقال تعالى كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون وقال تعالى ويوم ينفخ في الصور ونحشر الجرمين يومئذ زرقاً يخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً نحن أعلم بما يقول أمثالهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها وإن لهم دار غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغيب بيع دار البقاء بدار الفناء فاتجروا وتجارة الأكياس ولم يغتروا وتجارة السفهاء من الناس فظهر لهم لغابن ربح تجارتهم ومقدار ما شترود وكل أحد في هذه الدنيا بائع مشتر متجروا وكل الناس ينفذ في بايع نفسه فمعتقها أو موبقها إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم فهذا أول نقد من ثمن هذا التجارة فاجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف وائتاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة نجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون والمقصود أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الربحية وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان

فصل في

ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة سبباً يجلبه وآفة تبطله فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفات الممانعة منها معصيته فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها وبين العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسما لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو متم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم وكان هذا

(١٠ - الدواء)

أمر جار على الناس لأعليه وواصل الى الخلق لآليه فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم
للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفهم له ومن سعاده في
قربه منه وهو الملك الموكل به وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضرراً له وهو
الشیطان فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتى انه يتباعد منه
بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من
تثن ريمحه فاذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة فاذا يكون قدر تباعده منه مما
هو أكبر من ذلك وأخش منه وقال بعض السلف إذا ركب الذکر عجت الارض إلى الله
وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأته وقال بعض السلف إذا أصبح ابن آدم
ابتدره الملك والشیطان فان ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشيطان وتولاه وإن
افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى
يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند مبعثه قال الله
تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا
وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وإذا تولاه
الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفهم وأبرهم له فبته وعلمه وقوي جناحه وأيده قال تعالى
اذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ويقول الملك عند الموت لا تخف
ولا تحزن وأبشروا بالذي يسرك ويثبتته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا وعند
الموت وفي القبر عند المسألة فليس أحد أضع للعبد من صحبة الملك له وهو واه في يقظته
ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ومحدثه في سره
ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويبينه عليه ويعده بالخير ويبشره به ويحنه على التصديق
بالحق كما جاء في الاثر الذي يروى مرفوعاً وموقوفاً للملك بقلب ابن آدم لمة وللشیطان
لمة فامة الملك أيعاد بالخير وتصديق بالوعندولة الشيطان أيعاد بالشر وتكذيب بالحق
وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه وألقى على لسانه القول السديد وإذا أبعده
منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتى يرى الرجل
يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث ان السكينة تنطق
على لسان عمر رضى الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول

ما ألقاها على لسانك إلا الملك ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان فالملك يلتقي في القلب الحق ويقبض على اللسان والشيطان يأتي الباطل في القلب ويجريه على اللسان فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وإيه الذي سمعته في قلبه ومجاورته وموالاته وتدني منه عدوه الذي شقاه وهلاكه وفساده في قلبه وموالاته حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه كما اختصم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قلت فقال كان الملك ينافح عنك فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجس وإذا دعى العبد المسلم في ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال ولك بمثل ذلك وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حنة العرش ومن حوله وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاعه ملك فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويشبته ويشججه فسلاً يابق به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإيماده فانه ضيفه وجاره وإذا كان إكرام الضيف من الأدميين والاحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وهو حياته فما الظن بإكرام الأكرام والخير الحيران وأبرهم وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال لا جزاك الله خيراً كما يدعوا له إذا أكرمه بالطاعة والاحسان قال بعض الصحابة رضي الله عنهم إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرمواهم والأمر ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون أي استحيوا من هؤلاء الحفاظ الكرام وأكرمواهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم والملائكة تتأذى مما تأذى منه بنوا آدم وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويهوي بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان

فصل في

ومن عقوباتها أنها تستجاب مراد هلاك العبد في دنياه وآخرته فإن الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قلت ولا بد وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بفناء بحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه وحية يمتنع بها من تناول ما يؤذي ويخشى ضرره فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بفناء من

الايان والاعمال الصالحة تحفظ قوته واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الرديئة منه وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضرها وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضر الصحة والتقوى اسم يتناول هذه الامور الثلاثة فمافات منها فات من التقوى بقدره واذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الامور الثلاثة فانها يستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح فانظر الى بدن عايل قد تراكت عليه الاخلاط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتمى اها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل

جسمك بالجمية أحصته * مخافة من ألم طاري

وكان أولى بك أن تحتمى * من الماصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتنب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطالباً ولا من الشر مهرباً وبالله المستعان

فصل ❦

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك فاحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم كما قطع السارق في ثلاثة دراهم وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام وخفف هذه العقوبة عمن لم تم عليه نعمة الاحصان بانه جلدة وينفي سنة عن وطنه وبلده الى بلد الغربة وفرق بين رأس اليد وبدنه اذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله وقتل المفعول به وأمر بقتل من أتى بهيمة وقتل البهيمة معه وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي الى تلك الجرائم وحسب الوازع عنها فما كان الوازع عنها طبعياً وما ليس في الطباع داعياً اليه إكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حداً ككل الرجيع وشرب الدم وكل الميتة وما كان في الطباع داعياً اليه ترتب عليه من العقوبة بتقدير مفسدته وبقدر داع الطبع اليه ولهذا لما كان داع الطباع الى الزنا من أقوى الدواعي كانت من عقوبته العظمى من أشنع القتل وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع الجلد مع زيادة التعذيب ولما كان اللواط فيها الامران كان حده القتل بكل حال ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد وتأمل حكمته

في إفساد العضو الذي باشر به الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة
 قعطه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جناية إذ مفسدة قعطه تزيد على مفسدة الجناية
 ولا يبلغها فاكتفى من ذلك بإيلاام جميع يده بالجلد فان قيل فهلا أفسد على الزاني فرجه
 الذي باشر به المعصية قيل بوجود أحدها أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه
 قطع النسل وتعرضه للاهلاك الثاني أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقعطه متصودا الحد من
 الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد الثالث انه إذا قطع يداً بقي له يد أخرى
 تعوض عنها بخلاف الفرج الرابع ان لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الاحسن أن تعم
 العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببعضه منه فعقوبات الشارع جاءت على أهم
 الوجود وأوقفها للمقل وأقومها بالمصاححة والمقصود ان الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات
 الشرعية والقدرية أو يجزمها الله العبد وقد يرفها عن تاب وأحسن

❖ فصل ❖

وعقوبات الذنوب نوعان شرعية وقدرية فاذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو
 خففها ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين الا اذا لم ينف أحدهما يرفع
 موجب الذنب ولم يمكن في زوال دائه واذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية
 وربما كانت أشد من الشرعية وربما كانت دونها ولكنها تعم والشرعية تخص فان الرب تبارك
 وتعالى لا يعاقب شرعا الا من باشر الجناية أو تسبب اليها وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة
 وخاصة فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة واذا
 رأي الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أو شك أن يعصم الله تعالى بعقابه وقد تقدم
 أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها وجمالها
 سبحانه ثلاثة أنواع القتل والقطع والجلد وجعل القتل بازاء الكفر وما يليه ويقربه وهو
 الزناء واللواطه فان هذا يفسد الأديان وهذا يفسد الانسان قال الامام أحمد رحمه الله
 لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزناء واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يا رسول
 الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خالقك قال قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك
 مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل تصديقها في كتابه
 والذين لا يدعون مع الله آلها آخروا لا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية
 وانبي صلى الله عليه وسلم ذكر كل نوع أغلاه ليطلق جوابه سؤال السائل فانه سئل
 عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه وأعظم أنواع الزنا أن يزني بحليلة جاره فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عليه لم يكن منه وغير ذلك من أنواع أذاه فهو أعظم إثماً وجراً من الزنا بغير ذات البعد فإن كان زوجها جاراً له انضاف الى ذلك سوء الجوار وإذا أجاره بأعلى أنواع الاذى وذلك من أعظم البوائق وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ولا بأثقه أعظم من الزنا بامرأته فالزنا بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقرابه إنضم الى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الاثم فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد وتضاعف الاثم حتى ان الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ما شئت قال النبي صلى الله عليه وسلم فما ظنكم أي ماظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف الى ذلك قطيعة رحمها فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الاثم أعظم فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله كالوقت الصلاة وأوقات الاجابة تضاعف الاثم وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الاثم والعقوبة والله المستعان

❦ فصل ❦

وجعل سبحانه القطع باذاء افساد الاموال الذي لا يمكن الاحتراز منه فان السارق لا يمكن الاحتراز منه لانه يأخذ الاموال في الاختفاء وينتقب الدور ويتسور من غير الابواب فهو كالسنور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم فلم ترفع مفسدة سرقة الى القتل ولا تندفع بالجلد فاحسن ما دفعت به مفسدته ابانة العضو الذي تسلط به على الجناية وجعل الجلد باذاء افساد العقول وتمزيق الاعراض بالقذف فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الانواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة انواع العتق وهو اعلاها والاطعام والصيام ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة اقسام قسماً فيها الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة

اكتفاء بالحد وقتها لم يترتب عليه حد فشرع فيه الكفارة كالوطء في نهار رمضان والوطء في الاحرام والظهار وقتل الخطأ والحث في العيمين وغير ذلك وقتها لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان أحدهما ما كان الوازع عنه طبعياً كأكل العذرة وشرب البول والدم والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة والقبلة والدمس والمحاذنة وسرقة فلس ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع أحدها ما كان مباح الاصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطء في الاحرام والايام وطرده الوطء في الحيض والنفاس بخلاف الوطء في الدبر ولهذا كان الحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح فانه لا يباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر النوع الثاني ما عقده الله من نذر أو ماله من يمين أو حرمه الله ثم أراد حله فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة وإيست هذه الكفارة ماحية لهلك حرمة الاسم بالحث كما ظنه بعض الفقهاء فان لحن قديكون واجباً وقد يكون مستحباً وقد يكون مباحاً وانما الكفارة حل لما عقده النوع الثالث ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ وان لم يكن هناك ثم وكفارة قتل الصيد الخطأ وان لم يكن هناك ثم فان ذلك من باب الجوارب والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية بل ان كان فيها حد اکتفى به والا اکتفى بالتعزير ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها وما فيه كفارة فلا حد فيه وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان وهذا كالوطء في الاحرام والصيام ووطء الحائض اذا أوجبنا فيه الكفارة فقليل يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية وقيل لا تعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية

فصل في

وأما العقوبات التقديرية فهي نوعان نوع على القلوب والنفوس ونوع على الابدان والاموال والتي على القلوب نوعان أحدها الام وجودية يضرب بها القلب والثاني قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه واذا تعامت عنه حصل له اضدادها وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهي أصل عقوبة الابدان وهذه العقوبة تقوى وتزايد حتى تسري من القلب الى البدن كما يسري ألم البدن الى القلب فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر

ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الابدان الى هذه الدار

فصل

والتي على الابدان أيضاً نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة وشدها ودوامها بحسب مفاسد مراتب عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شرأصلاً إلا الذنوب وعقوباتها فالشر إسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الاعمال وهما الاصلان اللذان كان النبي صلى الله عليه وسلم يستيذ منها في خطبته بقوله ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسيئات الاعمال من شرور أنفسنا فعماد اشركاه الى شر النفس فان سيئات الاعمال من فروعها وثمراته وقد اختلفت في معني قوله ومن سيئات أعمالنا هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع الى جنسه أو يكون بمعنى من وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون انتقديرو من عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ويرجح هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر فان شرور النفس تستلزم الاعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة فبه شرور النفس على ما تقتضيه من قبح الاعمال واكتفي بذكرها منه أو هي أصله ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهو السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الاعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فانه سبحانه متي وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته أظهر في عقوبات الاعمال المطلوب وقايتهم يومئذ فان قيل فقد سألوه سبحانه أن يقهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد السيئة التي سألوها وقايتها الاعمال السيئة ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرد على هذا قوله يومئذ فان المطلوب وقايتهم شرور سيئات الاعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها قيل وقاية السيئات نوعان أحدها وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصد منه واثاني وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها فتضمنت الآية وآل الامرين والخرف تقييد للجملات الشرطية لا بالجملات الطلية وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالايمان والعمل الصالح والاحسان الى المؤمنين بالاستغفار لهم وقد دموا بين يدي استغفارهم وتوسلهم الى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العزيمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطبائعهم ومازين لهم من الدنيا وزيتها وعلمه بهم إذا نشأهم من الارض

وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم وعامه السابق بأنهم لا بد أن يعصود وأنه يحب العفو والمغفرة وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيدده ومحبه فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء والأشقي ممن لم تسمه رحمته التي وسعت كل شيء ثم سألوه أن يغفر للمؤمنين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبه وطاعته فيما أمر وترك ما يكره فتابوا مما يكره واتبوا السبيل الذي يحبها ثم سألوه أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها وهو سبحانه وإن كان لا يخاف الميعاد فانه وعدهم بها بأسباب من جعلها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة إنك أنت العزيز الحكيم أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكامل علمك فان انمزة كل القدرة والحكمة كل العلم وبها تين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء ويأمر وينهى وينيب ويعاقب فهاتان الصفتان مصدر الخالق والامر والمقصود أن عقوبات السيئات تنوع الى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهي إما في القاب وإما في البدن وإما فيهما وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت وعقوبات يوم عود الاجسام في الدار الآخرة فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة ولو كان لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة لانه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالالم فاذا استيقظ وصحى أحس بالموثم فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على النار والكسر على الانكسار والاعتراف على الماء وفساد البدن على السموم والامراض الاسباب الجالبة لها وقد تقارن المضره للذنب وقد تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة كإتأخر المرض عن سببه أن يقارنه وكثيراً ما يقع الفاظ للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثر عقيبه ولا يدري أنه يعمل وعمله على التدريج شيئاً فشيئاً كما تعمل السموم والاشياء الصارة حذو القذبة بالقذبة فان تدارك العبد نفسه بالادوية والاستفراغ والحمية والافهوساثر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيد أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة والله المستعان

﴿ فصل ﴾

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وعبرانها اليك واجعل ذلك داعياً لانتفس الى هجرانها وأنا أسوق اليك منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه فمنها الحتم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار والاقفال على القلوب (۱۱ - الدواء)

وجعل الاكثة عليها والرين عليها والطبع عليها وتقلب الاقدسة والابصار والحيلولة بين المرأ وقلبه واغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء اعبد نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب وجعل الصدر ضيقاً حرجياً كأنما يصعد في السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضاً على مرضها وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكسدة ذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال القلوب أربعة فقلب أبرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أعنف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب تمدد مادان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق أبكم لا ينطق به أعمى لا يراه فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والاصوات وعين الأعمى والالوان ولسان الأخرس والكلام وبهذا يعلم أن الصم والبكم والأعمى لقلب بالذات والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر كيف وقد قال تعالى ليس على الأعمى حرج وقال عبس وتولى أن جاءه الأعمى وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة الى كماله وقوته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقوله صلى الله عليه وسلم ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة والتممتان ولكن المسكين الذي لا يبذل الناس ولا يفتن له فيتصدق عليه ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به الى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والردائل كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالاً حول البر والخير ومعالي الأمور والاعمال والاقوال والاخلاق قال بعض السلف إن هذه القلوب جواله فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحشر ومنها ما يخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ومنها ما يمسخ على خاق كآب أو حمار أوحية أو عقرب وغير ذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم قال منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ومنهم من يتطوس في ثيابه لئلا يتطوس الطاووس في ريشه ومنهم من يكون بليد كالحمار ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ومنهم المحمود

كالحمل ومنهم الذي هو خير كانه كالغنم ومنهم أشباه الذئب ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ
 كروغانها وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغبى بالحمر تارة وبالكلب تارة وبالانعام تارة
 وتقوي هذه المشابهة باطناً حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراد المتفرسون ويظهر
 في الأعمال ظهوراً يراد كل أحد ولا يزال يقوي حتى تملأ الصورة فتنتاب له الصورة باذن الله
 وهو الذي انتم فيقاب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل
 باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الامة ويمسخهم قرده وخنزير فسبحان الله كم من
 قلب منكوس وصاحبه لا يشعر وقلب ممسوخ وقلب محسوف به وكم من مفتون ببناء الناس عليه
 ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها
 كرامة ومنها مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع واستهزأؤه بالمستهزى وإزاعته لقلب الزائع
 عن الحق ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر
 معروفاً ويفسد ويرى أنه يصالح ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعى إليها ويشترى
 الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى ويتبع هواه وهو يزعم أنه معطي لمولاد وكل
 هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا
 والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فمنعهم
 الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصاحبها ويزكها وما
 يفسدها ويشقيها وإن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه فتفوز
 بقربه وكرامته وتقربه عتياً وأطيب به نفساً بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم
 وحجاباً بينهم وبين ربهم وخلقتهم ومنها الميمنة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والنداب
 في الآخرة قل تعالى ومن أعرض عن ذكري فإن له ميسرة ضكاً ونحسره يوم القيامة
 أعمى وفسرت الميمنة الضنك بذياب القبر ولا ريب أنه من الميمنة الضنك والآية تناول
 ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى فإنه سبحانه
 رتب الميمنة الضنك على الاعراض عن ذكره فالعرض عنه له من ضنك الميمنة بحسب
 إعراضه وإن تنعم في الدنيا باصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي
 يقطع القلوب والاماني الباطلة والنداب الحاضر مافيه وإنما تواريه عند سكرات الشهوات
 والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الامة أعظم
 من سكر الخمر فإنه يفيق صاحبه ويصحوا وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحوا صاحبه
 إلا إذا سكر في سكر الاموات فالميمنة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي
 أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا

یهدی القلب ولا تطمئن النفس الا بأهلها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فنحنينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون فضمن لاهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسني يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين وهم احياء في الدارين ونظير هذا قوله تعالى وللذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير وانتم دار المتقين ونظيرها قوله تعالى وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يتمكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه واندته وإتهاجه وطهأنيته وانسراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن اليه فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجلدونا عليه بالسيف وقال آخر انه يمر بالقباب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم اني عيش طيب وقال الآخر ان في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه الجنة بقوله اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حاق الذكر وقال ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ولا تظن ان قوله تعالى ان الابرار اني نعيم وإن الفجار اني جحيم يختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر الناب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبه والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة الا عيش القاب السليم وقد أثنى الله تعالى على خليفه عليه السلام بسلامة القلب فقال وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم وقال حاكياً عنه انه قال يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقاب سليم والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والفعل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبمده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تراحم مراده وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله فهذا القلب السليم في جنة معجزة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة وشهوة تخالف الامر وغفلة تناقض الذكر وهو يناقض التجريد والاخلاص يعم وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها

أنواع كثيرة تتضمن افراد الاشخاص لا تحصر ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته الى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم فليس العبد أحوج الى شيء منه الى هذه الدعوة وليس شيء أنفع منها فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريد نفسه وقد لا تريد كسلاً ونهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك وما تريد قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الاخلاص وقد لا يقوم وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكامل المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد صرف قلبه عنه وهذا كله واقع سار في الخلق فمتقل ومستكثر وليس في طباع العبد الهداية الى ذلك كله بل متى وكل الى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الاركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فاعادهم الى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضاءه وقدره وأمره ونهيه فيهدي من يشاء الى صراط مستقيم بفضله ورحمته وجعل الهداية حيث تصاح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعذله وحكمته لعدم صلاحية المحل وذلك موجب صراط المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً اليه حجة منه وعدلاً وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلاً ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه فاذا كان يوم القيامة نصب لخلق صراطاً مستقيماً يوصاهم الى جنه ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسمى بين أيديهم وبإيمانهم في ظلمة الحشر وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الايمان حتى اقوه وأطفى نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا وأقام أعمال العصاة بجنتي الصراط كلاليب وحسكاً تخطفهم كما تخطفهم في الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم اليه في الدنيا ونصب لهؤمنين حوضاً يشربون منه بازاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه هنا فنظروا الى الآخرة كأنها رأي عين وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حيثذا علماً يقيناً لاشك فيه ان الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وانموذجها وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الايمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن

أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط في الدنيا والآخرة

﴿ فصل ﴾

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها ونحن نذكر فيها بعون الله فصلاً وجزاً جامعاً فنقول أصلاً نوعان ترك ما موروفعل محظور وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والانس بهما وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطن في القلوب وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلق فهو متضمن لحقه لكن سمي حقاً للخلق لأنه يجب بمطالبهم ويسقط باسقاطهم ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية لا تخرج عن ذلك فإن الذنوب الملكية ان من يتماطامالا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك ويدخل في هذا الشرك بالرب تعالى وهو نوعان شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه وشرك به في معاملته وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه وجعل له نداً وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل

﴿ فصل ﴾

وأما الشيطانية فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغى والنفس والغل والخذاع والمكر والامر بمعاصي الله وتحسينها والنهي عن طاعة الله وتهجينها والابتداع في دينه والدعوة إلى البدع والضلال وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة وإن كانت مفسدته دونه

﴿ فصل ﴾

وأما السبعية فذنوب المدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والمجازين ويتولد منها أنواع أذى النوع الانساني والجرأة على الظلم والمدوان وأما الذنوب البهيمية فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنا والسمرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والحين والهلل والجزع وغير ذلك وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام فهو يجرهم إليها بزمام فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له ان الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبية

﴿ فصل ﴾

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كباثروصغائر قال الله تعالى إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقال تعالى والذين يجتنبون كبائر الاسم والفواحش إلا اللغم وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات أحدها أن تقصر عن تكفير الصغائر أضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية الثانية أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفيرها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيد عنك إشكالات كثيرة وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الا أنبئكم باكبائر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله فقال الاشرار بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وروي في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله قال الاشرار بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قيل ثم أي قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية واختلف الناس في الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين ثم الذين قالوا يحصرها اختلفوا في عددها فقال عبد الله بن مسعود هي اربعة وقال عبد الله بن عمر هي سبعة وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص هي تسعة وقال غيره هي إحدى عشر وقال آخر هي سبعون وقال أبو طالب المكي جمعها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والامن من مكر الله وأربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الناموس والسحر وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا واثنان في الفرج وهما الزنا واللواط واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجاين وهي الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال كلما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة وقالت طائفة ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن

أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة وما لم يقرب به من ذلك شيء فهو صغيرة وقيل كلما رتب عايه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يرتب عايه لاهذا ولا هذا فهو صغيرة وقيل كلما انفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة وقيل كلما لعن الله أو رسوله فاعاله فهو كبيرة وقيل كلما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله إن تجنّبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر فانظر إلى من عصى أمره وانتكح محارمه توجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة قالوا ويوضح هذا إن الله سبحانه لا يضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنوب قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوابع على حق الرب تبارك وتعالى ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطأ فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بأحد المفسدتين وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوابع قالوا ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وإنتهاك حرمة وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنوب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمة بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية فإن ملكًا عظيمًا مطاعًا لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار فمصيابه وخالفًا أمره لكانا في مقتله والقروط من عينه سواء قالوا وإنما كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ولو كان مع رجل مائتا درهم ففزع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم ففزع زكاتها لا يستويان في منع ماوجب على كل واحد منهما ولا يبعد استوائها في العقوبة إذا كان كلاهما مصر على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا

فصل في

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال إن الله عز وجل أرسل رسوله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ليعرف ويعبد ويوجد ويكون الدين كله له والطاعة

كلها له والدعوة له كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقال تعالى وما خلقتنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقال تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علماً وقال تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم فأخبر سبحانه ان القصد بالحق والامر ان يعرف باسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وان يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والارض كما قال تعالى لقد ارسلنا رسلاً بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فأخبر سبحانه انه ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن اعظم القسط التوحيد بل هو رأس العدل وقوامه وان الشرك ظلم كما قال تعالى ان الشرك اظلم من الظلمة قال الشرك اظلم الظلمة والتوحيد اعدل العدل فما كان اشد منافاة لهذا المقصود فهو اكبر الكبار وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان اشد موافقة لهذا المقصود فهو اوجب الواجبات وافرض الطاعات فتأمل هذا الاصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف به احكام الحاكمين واعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان اكبر الكبار على الاطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لاهل التوحيد وان يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته وأبى الله سبحانه ان يقبل من مشرك عملاً او يقبل فيه شفاعه او يستجيب له في الآخرة دعوة او يقبل له فيها عشرة فان المشرك اجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به كما انه غاية الظلم منه وان كان المشرك لم يظلم ربه وانما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي ان المشرك انما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى اوانه اعظمته لا ينبغي الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك فالشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني اليه وتدخاني عليه فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء فلم كان هذا القدر موجب لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً في النار وموجباً سفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر وهو انه هل يجوز ان يشرع الله سبحانه لعباده التقرب اليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع ان تأتي به شريعة بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح وما السبب في كونه لا يفقره من دون

سائر الذنوب كما قال تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تسهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد فإنه من يهdy الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادي له ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله والشرك الاول نوعان أحدهما شرك التعطيل وهو أتبع أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وإني لأظنه كاذباً فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ولكن عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع اليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ويقولون هنا شيئان بل الحق المنزه وهو عين الخلق المشبه ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوماً أصلاً بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستندة عندهم الى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها إسموتها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها

فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك التصاري الذي جعلوه ثالث ثلاثة فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلهاً ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر الى الظلمة ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه وإنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ولهذا كانوا من أشباه المجوس ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت فهذا جعل نفسه نداً لله يحيي ويميت بزعمه كما يحيي

الله ويميت فالزمه ابراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل الزام على طرد الدليل إن كان حقا ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابا مدبرة لامر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الآله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل اليه والانقطاع اليه أقبل عليه واعتني به ومنهم من يزعم ان معبودهم الادي يقر به الى المعبود الذي هو فوقه والفقائي يقر به الى من هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه قارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل في

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لا يخص الله في معاملته وعبوديته بل يعمل لحظ نفسه تارة وطاب الدنيا تارة ولطاب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة فله من عمله وعبادته نصيب وانفسه وحظه وهواد نصيب وللشيطان نصيب وللخلق نصيب هذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل قالوا وكيف نخجوا منه يارسول الله قال قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لأعلم قال الرباء كله شرك قال تعالى قل إنما أنا بشر مثاكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده فكما تفرد بالالهية يجب أن يفرد بالعبودية فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المتيد بالسنة وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه اذا كان العمل واجبا فانه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الامر فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به

وأنا منه برى وهذا الشرك ينقسم الى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر والنوع الاول ينقسم الى كبير وأكبر وليس شيء منه مغفور فنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بان يجب مخلوقا كما يجب الله فهذا من الشرك الذي لا يفره الله وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الآية وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم تالله إن كنا في ضلال ميين إذ نسويكم رب العالمين ومعلوم أنهم مأسوؤهم به سبحانه في الخلق والرزق والامانة والاحياء والملك والقدرة وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوي من خالق من التراب رب الارباب وكيف يسوي العبيد بما لك الرقاب وكيف يسوي الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته الا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته فاي ظلم أقبح من هذا وأي حكم أشد جورا منه حيث عدل من لاعدل له بحاقه كما قال تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور الذين كفروا بربهم يعدلون فعدل المشرك من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه

فصل

ويتبع هذا الشرك بالشرك به سبحانه في الاقوال والافعال والارادات والنيات فالشرك في الافعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته وحقاق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الاحجار غير الحجر الاسود الذي هو عين الله في الارض أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أو تانا يعبدها من دون الله وفي الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي الصحيح عنه أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي الصحيح أيضا عنه أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وفي مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم إذامات فيهم الرجل الصالح بنوا على

قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أو تلك شرار الخلق عند الله يوم القيامة فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لكلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة بان منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس وأما السجود لغير الله فقال لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله ولا ينبغي في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والذي هو في غاية الامتناع شرعاً كقوله تعالى وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً وقوله وما علمناه الشعر وما ينبغي له وقوله وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي له وقوله عن الملائكة ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء

فصل في الرد

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كإرواد أحمد وأبوداود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك ومخججه الحاكم وابن حبان ومن ذلك قول القائل للمخلوق ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت قال أجمعتني لله نداءً قل ماشاء الله وحده وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله إن شاء منكم أن يستقيم فكيف من يقول أنا متوكل على الله وعليك وأنا في حسب الله وحسبك ومالي إلا الله وأنت وهذا من الله ونك وهذا من بركات الله وبركاتك والله لي في السماء وأنت لي في الأرض ويقول والله وحياتة فلان أو يقول نذراً لله ولفلان وأنا تائب لله ولفلان أو أرجوا الله ولفلانا ونحو ذلك فوازن بين هذه الالفاظ وبين قول القائل ماشاء الله وشئت ثم انظر أيهما أحسن يتبين لك ان قائنها أولى لجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة وانه اذا كان قد جمعه نداءً لله بها فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الاشياء بل لعنه أن يكون من أعدائه نداءً الرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والابانة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والتذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغي اسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل وفي مسند الامام أحمد أن رجلاً أتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم قد

أذنب ذنباً فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أتوب اليك ولا أتوب الى محمد فقال قد عرف الحق لاهله

فصل

وأما الشرك في الارادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعبادته غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب اليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته والاخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الخيفية ملة ابراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى ومن يتبع غير الاسلام ديناً فان يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وهي ملة ابراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة لا اثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعكس من نكس الله قابه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الامر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيماً وطاعة فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الالهية فان من خصائص الالهية التفرّد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وذلك يوجب تعاليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده فمن عاق ذلك بمخلوق فقد شبه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أفضل من غيره تشبيهاً بمن له الامر كله فازمة الامور كلها بيديه ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع بل إذقح لعبدته باب رحمة لم يمسكها أحد وإن أمسكها عنه لم يرسلها اليه أحد فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالتقادر الغني بالذات ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده انه لا يفره مع انه كتب

عنا نفسه الرحمة ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبه به في خالص حقه وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واحتالهم عنها وهضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله الحسني فارسل اليهم رساله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء اذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبه به ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً فمن حلف بغيره فقد شبه به هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبه به فمن تعظم وتكبر ودعا الناس الى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعني واحداً منهما عذبتة وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والالهية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم أحيوا ما خلقتهم وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال - الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به في صنعة صورة فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده كملك الاملاك وحاكم الحكام ونحوه وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أختع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك الا الله وفي لفظ أغبط رجل على الله رجل يسمى بملك الاملاك فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي الا له فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضي عليهم كلهم لا غيره

﴿ فصل ﴾

إذ تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماؤه وصفاته وهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وقال تعالى عن خليله إبراهيم إنه قال لقومه ماذا تعبدون إفاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي فما ظنكم أي يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وأنه غني عن كل مسواه وكل مسواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فانهم يحتاج إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترهم وإلى من يستعطفهم بالشناعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور عامهم فأما القادر على كل شيء الغني عن كل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فادخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطرو قبجه مستقر في السليمة فوق كل قبيح يوضع هذا إن الباطن معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع وهذا خالص حقه فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم الآية أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه فكيف يجعلون لى من عبدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الإلهية التي لا تنبغي لعبدي ولا تصح لسواي فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمتني حق عظمتي ولا أفردني بما أنا متفرد به وحمدي دون خلقى فما قدر الله حق قدره من عبده معه غيره كما قال تعالى يا أيها الناس ضرب مثلا لستمعوا له

إن الذين تدعون من دون الله إن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له إلى قوله لقوي عزيز فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغر دواب يسألهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدرُوا على الاستعاذة منه قال تعالى وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل وكذلك ما قدره حق قدره من قال أنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبة إلى مال يابق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا وكذا ما قدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى فنفي سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه من شاء من خلقه بما يريد ونفي عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباد من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته وجماعهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئته الرب فيكون في ماله ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون فتعالى عن قوله أشباه المجوس علوا كبيرا وكذلك ما قدره حق قدره من قال أن يعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله فيعاقب عبده على فعله فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من أكره المخلوق للمخلوق وإذا كان من المستقر في الفطر والمقول إن السيد لو أكره عبده على فعل أو الجأ إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العاديين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ثم يعاقب عبده على ما لا يفعله من أشباه قول المجوس والطائفتان ما قدر الله حق قدره وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنع من تن ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه إليه تصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وتمرج الملائكة والروح وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم تعرج إليه فصفاه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه وما قدر الله حق قدره من نفي حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقتته ولأمن نفي حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ولأمن نفي حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به بل أفعاله مفعولات متفصاة عنه فنفي حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفها قد قدروه حق قدره

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً وجماعه سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أو جماعه عين هذا الوجود وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكركم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهائهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أين ما تقفوا وهذا يتضمن غاية القدر في جناب الرب تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين إنه أرسل ملكاً ظالماً فادعا النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زماناً طويلاً يكذب على الله كل وقت ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسوله ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحریمهم ويقول الله أباح لي ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ويقربه ويحيب دعواته ويمكنه من مخالفه ويقم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحداً الاظفر به في صدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث أدلة تضديقه شيئاً بعد شيء إلى يوم القيامة ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدر والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة بحمد القواين كما قال الشاعر

رضيى لبان ندى أم تقاسما * باسحج داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفه عين ويدخلهم دار النعيم وان كل الامرین بالنسبة اليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فعناء للخبر لا للمخالفة حكمته وعدله وقد انكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوء الاحكام وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيى الموتى ولا يبعث من في القبور ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه باحسانه والمسيء فيه باسائه ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ويكرم للمتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ويبين لحقه الذي يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره ففصاه ونهيه فارتكبه وحقه فضيعه وذكره فاهمله وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلهذا الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده يستخف بنظر الله اليه وإطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق اليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ويخشي الناس ولا يخشي الله ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل

الله عامه باهون ما عنده وأحقه وان قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد افرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه حتى اذا قام في حق ربه ان ساعد القدر قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله وبذل له من مثله ما يستحي ان يواجه به مخلوق مثله فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء فلو جعل له من اقرب الخلق اليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة وتوتياً على محض حقه واستهانة به وتثريباً بينه وبين غير دنيما لا ينبغي ولا يصاح الاله سبحانه فكيف وإنما اشرك معه بعض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتمهم عنده وهو عدوه على الحقيقة فانه ما عبد من دون الله الا الشيطان كما قال تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالشيطان يدعو المشركين الى عبادته وبوهمهم أنه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون إنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدها وإنما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيهاهم وأمرهم بها وهذا هو الشيطان الرحيم لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيدل هذا كله على قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم فما عبد أحد من بني آدم غير الله كأنساً من كان الا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالعبود في حصول اغراضه ويستمتع المعبود بالعباد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس أي من إغوائهم وإضلالهم وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبعنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدون فيها إلا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم فهذه إشارة لطيفة الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وانه لا يغفره بغير التوبة منه وإنه يوجب الخلود في النار وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاً غيره كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت

جلاله وكيف يغضب بالثبوت بالربوبية والالهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضي به تعالى الله ذلك علواً كبيراً.

فصل ٥٠ -

فأما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق أمر لاجله بالأمر الذي كان من أكبر الكبار عند الله وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فإن الله سبحانه خالق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والشرك والكبر ينافيان ذلك وإنك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

فصل ٥١ -

ويلى ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أشد شيء منافاة ومنافاة الكمال من له الخلق والأمر وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إنمأ عند الله فإن الشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور تقرباً إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ما كما هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول فإن القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظماً له وإجلالاً فداء التعطيل هذا الداء المضال الذي لا دواء له ولهذا حكى الله عن امام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات يها مان ابن لي صرحاً لملي أبغ الأسباب أسباب السموات فاطاع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب اجتماع الحيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية في إثبات العلوم والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ولما كانت هذه البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكديباً بما أخبر به عن عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا وجهلاً كانت من أكبر الكبار إن قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها وقال إبليس لعنه الله أهلك بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك

ثبت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون انهم محسنون صنماً ومعلوم أن المذنب انما ضرره على نفسه وأما المبتدع فضرره على النوع وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب في الشهوة والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم بصددهم عنه والمذنب ليس كذلك والمبتدع قاذح في أوصاف الرب وكاله والمذنب ليس كذلك والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والمعاصي ليس كذلك والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والمعاصي بطي السير بسبب ذنوبه

فصل في

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذي قامت به السموات والارض وأرسل الله سبحانه رساله صلى الله عليه وسلم وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان أي الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له وقد جعل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمنزلة ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبیح الظلم وأشدّه وكذلك قتله أبويه الذين كانوا سبب وجوده وكذلك قتله ذات رحمه وتفاوت درجات القتل بحسب قبحة وإستحقاق من قتله السعي في إيقائه ونصيحته ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي وولايه من قتل إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له هذا ، ووجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع ولا خلاف أن الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن أحمد والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذها أو أنه حق لأدمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفي له في دار العدل قالوا فما استوفاه الوارث فأنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما يتنعم المقتول من استيفاء وارثه وأي استدراك اظلامته حصل له باستيفاء وارثه وهذا أصح القولين في المسألة أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث وهي وجهان لأصحاب الشافعي وأحمد وغيرها ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث فإن التوبة تهدم ما قبلها والذنب الذي قد جنه قد أقيم عليه حد قالوا وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر وهما أعظم أثام من القتل فكيف تقصر عن محو أثر القتل وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم

من خيار عباده ودعا الذين أحرقوا أو آيأهم وفتنواهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة وقال تعالى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا وهذا في حق التائب وهي تناول الكافر ثم أدونه قالوا وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة هذا معلوم المتناؤد في شرع الله وجزائه قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فأقام الشارع وإيه مقامه وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق لله وحق للمظلوم المقتول وحق للولي فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختياراً إلى الولي ندما على ما فعل وخوفاً من الله وتوبة نصوحاً يسقط حق الله بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ويبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يبطل حق هذا ولا يبطل توبة هذا وأما مسألة المال فقد اختلف فيها فقالت طائفة إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث فقد بريء من عهده في الآخرة كما بريء منها في الدنيا وقالت طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له فإنه منعه من انتفاعه به في طول حياته ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بادراكه وبنوا هذا على أنه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين فقال إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة كما هي له كذلك في الدنيا وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه بل حال بينه وبينه ظملاً أو عدواناً فالطلب له في الآخرة وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعدراً أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل وداره التي أحرقتها غيره وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فحق المطالبة لمن تلف على ملكه فينبغي أن يقال فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت وإذا لم تدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بان يقال المطالبة لها جميعاً كما لو غصب مالا مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فابطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم

ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس وقالوا معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثمًا عند الله من إثم قاتل نفس واحدة وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الأثم والعقوبة والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار وذلك لا يوجب أن إثمهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله أي مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر وقوله صلى الله عليه وسلم من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الاشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فان قيل ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعاً قيل في وجوه متعددة أحدها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لأمره متعرض لعقوبته وكل منهما قديراً بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم وأعد لهم عذاباً عظيماً وإن تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لامرزية له من آحاد الناس الثاني أنهما سواء في استحقاق ازهاق النفس الثالث أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فان من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الارض ولأخذ ماله فانه يجترى على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله فهو معاد للنوع الانساني ومنها أنه يسمي قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً كما يسمي كذلك بقتله الناس جميعاً ومنها أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توابعهم وتراحيمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

سائر الجسد بالحمى والسهم فاذا أتلف القاتل عضواً من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد
والم جميع أعضائه فمن أذى مؤمناً واحداً فقد أذى جميع المؤمنين وفي أذى جميع المؤمنين
أذى جميع الناس كأنهم فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فايداء الحفير ايداء
المخفر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقتل النفس ظمناً بغير حق إلا كان على ابن آدم
الأول كمثل منها لانه أول من سن القتل ولم يحىء هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق
ولا أول شارب مسكروا إن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لانه أول
من سن الشرك ولهذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم
العذاب في النار لانه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام وقد قال تعالى ولا تكونوا
أول كافر به أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون أثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة
سيئة فاتبع عليها وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال يحىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده واوداجه تشخب
دماً يقول يا رب سل هذا فيما قتاني فذكروا لابن عباس التوجه قتل هذه الآية
ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثم قال ما نسخت هذه الآية ولا بدلت
وأني له التوبة قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب
قال أول ما يتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم أن لا يأكل الا طيباً فليفعل ومن
استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملاً كف من دم أهرقه فليفعل وفي جامع الترمذي
عن نافع قال نظر عبد الله بن عمر يوماً الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك
والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري
أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال المؤمن في فسحة من
دينه ما لم يصب دماً حراماً وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال من ورطت الامور
التي لا يخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حاجة وفي الصحيحين عن أبي
هريرة يرفعه سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ونهما أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا
بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم
من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وان ربحها يوجد مسيرة أربعين عاماً هذه عقوبة قاتل
عدو الله إذا كان معاهداً في عهده وأمانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن وإذا كانت امرأة
قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً فرآها النبي صلى الله عليه وسلم في
النار والهرة تحذ شفاقي وجهها وصدرها فكيف بعقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم
وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق

فصل ۵۰

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفسدات وهي منافية لصاحبة نظام العالم في حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم كانت تلى مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم في سنة كما تقدم قال الامام أحمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنا وقد أكد سبحانه حرمة بقوله والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآية فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين ما لم يرفع العبد وجب ذلك بالنوبة والایمان والعمل الصالح وقد قال تعالى ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فاخبر عن فحشه في نفسه وهو التبيح الذي قد تنهاه بقبحه حتى استقر فحشه في العمول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الاودي قال رأيت في الجاهلية قرداً زناً بقردة فاجتمع القرد ودعاها ففرجوها حتى ماتا ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح أزواج الآباء من أفبجه خصه بمزيد ذم فقال أنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً وعاق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال قد أفاح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله فمن ابتنى وراء ذلك فاولئك هم العادون وهذا يتضمن ثلاثة أمور من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفاحين وانه من الملوين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العداوان ووقع في اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بض ذلك ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خاق هلو عا لا يصبر على شرو ولا خير بل إذامسه الخير منع وبخل وإذامسه الشر جزع الامن استثناء بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر منهم الذين هم امرؤ وجههم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتنى وراء ذلك فاولئك هم العادون وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بنض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بنضه مقدماً على حفظ الفرج فان الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصفر الشر ثم تكون نظارة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حافظ هذه الاربعة أحرز دينه الاحضات والحطرات والالغظات والخطوات فينبغي له بعد أن يكون

بواب نفسه على هذه الابواب الاربعة ويلتزم الرباط على ثغورها فتها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبرماعلو اتيرا

فصل

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الابواب الاربعة فنذكر في كل واحد منها فصلاً يليق به فاما الاحظاظ فهي رائد الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أوردته موارد الهلاك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يا علي لا تتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وايسر لك الثانية وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورش الله في قلبه حلاوة العبادة الى يوم القيامة هذا معنى الحديث وقال غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وقال إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله مجالسنا ما نابد منها قال فان كنتم لا بد فاعلمين فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال غض البصر وكف الاذي ورد السلام والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الانسان فان النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة ففكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده ولهذا قال الشاعر

كل الحوادث مبدؤها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها * كمنابع السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طرف يقبله * في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ماضر مهجته * لامرحبا بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيري العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه قال الشاعر
وكنتم متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر
وهذا البيت يحتاج الى شرح ومراده أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه فان قوله لا كله أنت قادر عليه نفى لقدرته على الكل الذي لا يتنى إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد وكم من مرسل لحظاته فداقلمت إلا وهو يتشخط بينهن قتيلاً كما قيل
ياناظرأ ما قلمت لحظاته * حتى تشخط بينهن قتيلاً

ولی من آیات

مل السلامة فاغدت لحظاته * وقفاً على طالم يظن جيلاً
ما زال يتبع أثره لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلاً
ومن العجب أن لحظة الناظر بهم لا يصل الى المنظور اليه حتى يتبوء مكاناً من قاب الناظر
ولى من قصيدة

ياراميا بسهام اللاحظ مجهداً * أنت القتل بما ترمي فلا نصب
وباعت الطرف يرتاد الشفاهه * أحبس رسولك لا يأتيك بالعطب
وأعجب من ذلك أن نظرة تجرح القاب جرحاً فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة
من استدعا تكرارها ولى أيضاً في هذا المعنى
مازلت تتبع نظرة في نظرة * في أثر كل مديحة وما يرح
وتظن ذلك دواء جرحك وهو في الـ * بتحقيق تجرح على تجرح
فذبحت طرفك بالاحاظ وبالباكا * فالقاب منك ذبيح أي ذبيح
وقد قيل إن جنس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل ❦

وأما الخطرات فشأنها أصعب فانها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم
والعزائم فمن راعي خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن غلبته خطراته فهوواه ونفسه
له أغلب ومن استهان بالخطرات قاده قهراً إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تنردد على القاب
حتى تصير مني باطلة كسراب بقيمة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد
الله عنده فوفاه حساباً والله سريع الحساب وأحسن الناس همّة وأوضعهم نفساً من رضى
من الحقائق بالاماني الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهي لعمرك الله رؤس من أموال
المفلسين ومتاجر الباطين وهي قوة النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال
ومن الحقائق بكراذب الآمال كما قال الشاعر

أمانى من سعد رواء على الظما سقنا بها سعداً على ظمء بردا
مني إن تكن حقا تكن أحسن المني والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهي أضر شئ على الانسان وتتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والاضاعة والحسرة
والندامة والمتعني لما فاته مباشرة الحقيقة بحسبه تحت صورتها في قلبه وعانقها وضمها اليه
فقنع بوصال صورة وهمية خالية صورها فكره وذلك لا يجدي عليه شيئاً وإنما مثله مثل

الجائع والظمان يصور في وهمه صيرة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به الى ذلك واستجلا به يدل على خساسة النفس ووضاعتها وانما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعالوها بأن تنفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها ولا ترضى أن يخطر بها بباله ويأتمن لنفسه منها ثم الخطرات بعد أنسام تدور على أربعة أصول خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياء وخطرات يستدفع بها مضار دنياء وخطرات يستجلب بها مصالح آخرة وخطرات يستدفع بها مضار آخرة فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره وإذا تراحت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته وأخر الذي ليس باهم ولا يخاف فوته بقي قسمان آخران أحدهما مهم لا يفوت والثاني غير مهم ولكنه يفوت ففي كل منهما يدعوا الى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فان قدم الأهم خشى فوات مادونه وان قدم مادونه فاته الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ولا يحصل أحدهما الا بتفويت الآخر فهو موضع استعمال العقل والعقده والمعرفة ومن ههنا ارتفع من ارتفع وأنجح من أنجح وخاب من خاب فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفة يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت ولا نجد أحداً يسلم من ذلك ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم في هذا الباب لا اعادة الكبرى التي يكون عليها مدار الشرع والنذر واليه يرجع الخالق والامر وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما وإن فانت المصلحة التي هي دونها والدخول في أدنى المفسدين لدفع ما هو أكبر منهما فتتوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منهما ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها فخطرات العاقل وفكره لا يتجاوز ذلك وبدلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم الا على ذلك وأعلى الفكر وأجها وأنفها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع (الاول) الفكرة في آياته المنزلة وتعلقها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى الا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً (الثاني) الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته واحسانه وبره وجوده وقد حث الله سبحانه عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعلقها وذم الغافل عن ذلك (الثالث) الفكرة في آياته وإحسانه وإنعامه على خلقه باصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحامه وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبه وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصيب القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة (الرابع) الفكرة في عيوب النفس وأفاتها وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهذا باب

لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الامارة بالسوء ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها فحى القاب ودارت كرامته في مملكته وبث أسراعه وخنوده في مصالحه (الخامس) افكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فان أضاعه ضاعت عليه مصالحها فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً قال الشافعي رضى الله عنه صحبت الصوفية فلم أستغد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم الوقت سيف فان لم تقطعه قطعتك وذكر الكلمة الاخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق والاشغالك بالباطل فوقت الانسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياة الابدية في الزميم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الاليم وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وان عاش فيه عيش الهائم فاذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والاماني الباطلة وكان خير ماقطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته واذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته الا ما اعتل منها فليس له من عمره الا ما كان فيه بالله وله وما عدا هذه الاقسام من الخطرات والتمكر فاما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخذع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكرى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق

إن كان منزاتي في الحب عندكم * ما قد لقيت فتد ضيقت أيامي

أمنية ضفرت نفسي بها زمنا * واليوم احسبها أضغاث أحلام

وأعلم ان ورود الخاطر لا يضر وإنما يضر استدعاؤه ومخادنته فالخاطر كالبار على الطريق فان لم تستدعه وتتركه مروا نصرف عنك وان استدعيتك يحرك بحديثه وخذعه وغروره وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة وأثقل شيء على القاب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة وقد ركب الله سبحانه في الانسان نفسيين نفساً أماردة ونفساً مطمئنة وهما متعاديتان فكما خنفت على هذه ثقل على هذه وكأما التذت به هذه تألمت به الاخرى فليس على النفس الامارة أشق من العمل لله واينار رضاه على هواها وايس لها أنفع منه وكذا ليس على النفس المعامنة أشق من العمل لغير الله وأجابة داعي الهوي وايس عليها شيء أضر منه والمملك مع هذه عن يمين القاب والشيطان مع تلك عن يسرة القاب والحروب مستعرة لاتضع أوزارها الا أن تستوفي أجلها من الدنيا والباطل كله يخبز مع الشيطان والامارة والحق كله يخبز مع المملك والمطمئنة والحرب دول وسجك وانصر مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتق الله فله العافية في الدنيا والآخرة وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً أن

العاقة للتقوي والعاقة للمتقين فالقالب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعاقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع وأماني باطلة وسراب لاحقيقة له فأني حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش وإذا أراد أن ينتقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه فان لم يفرغ القلب من الخواطر الرديئة لم يستقر فيه الخواطر النافعة فانها لا تستقر إلا في محل فارغ كما قيل

أناي هواها قبل أن أعرف الهوي فصادف قلباً خالياً فتمكنا

واهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر وان لا يمكنوا خطراً يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابضة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء فانهم أدخلوا القلوب من أن يطرقتها خاطر فبقيت فارغة لاشيء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل في قوالب وهمهم أنها أعلى الاشياء وأشرفها وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى وإذا دخل القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بارادة التجريد والفراغ من الارادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه وهي إرادة مراد الله الديني الامري الذي يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الحاق والتطرق الى ذلك والتوصل اليه بالدخول في الحاق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم الى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا واسبابها واوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ وهيئات هيئات إنما الكمال في اجلاء القلب والسر من الخواطر والارادات والفكر في تحصيل مرضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك التوصل اليه فأكل الناس أكثرهم خواطر وفكر أو إرادات لذلك كما إن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكر أو إرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر في مرضات الرب تعالى فربما استعملها في صلاته فكان يجهز جيشه وهو في صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لا يدخل منه الا صادق حاذق الطلب متضاع من العلم عالي الهمة بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فصل في

وأما اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظه ضائعة بل لا يتكلم الا فيما يرجو فيه الربح والزيادة

فی دینہ فاذا اراد ان يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضعها بهذه وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فانه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبي قال يحيى بن معاذ القلب كالقدور تغلى بما فيها والسنة مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يعترف لك به مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك وبين لك طعم قلبه إغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك وفي حديث أنس المرفوع لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار فأخبره صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال ألا أخبركم بما لا يكلفكم ذلك كله قال بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال كم عليك هذا فقال وإنا لمواخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد السنتهم قال الترمذى حديث حسن صحيح ومن العجب أن الانسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقه وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يري الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا ياتى لها بال يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم تري من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه تغري في أعراض الأحياء والاموات واليبالى ما يقول وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر الى مارواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى على إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحببت عملي فهدا العابد الذي قد عبد الله ماشاء أن يعبد أحببت هذه الكلمة الواحدة سمه كله وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا ياتى لها بال يرفعه الله بها درجات وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا ياتى لها بال يهوي بها في نار جهنم وعند مسلم ان العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المغرب والمشرق وعند الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث بلال بن الحارث المزنى إن أحدم

ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم
 يلقاه وإن أحدكم يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها
 سخطه الى يوم يلقاه فكان عاقمة يقول كم من كلام قد منعني حديث بلال بن الحارث
 وفي جامع الترمذي أيضاً من حديث أنس قال توفي رجل من الصحابة فقال رجل أبشر
 بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لا تدري لعاهتك فيما لا يعنيه أو بخل
 بما لا ينقصه قال حديث حسن وفي لفظ أن غلاماً استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة
 مربوطة من الجوع فسححت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئاً لك يا بني الجنة فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضر وفي الصحيحين
 من حديث أبي هريرة يرفعه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يصمت وفي
 لفظ لمسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخيراً أو يسكت وذكر
 الترمذي بإسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وعن
 سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً
 بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي فآخذ بلسان
 نفسه ثم قال هذا والحديث صحيح وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي
 صلى الله عليه وسلم قال كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر
 أو ذكر الله عز وجل قال الترمذي حديث حسن وفي حديث آخر إذا أصبح العبد فان
 الأعضاء كلها تكفّر اللسان تقول اتق الله فانما نحن بك فإذا استقممت استقمنا وإن أعوججت
 أو أعوججنا وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله يوم حار ويوم بارد ولقد
 روى بعض الأَكابر من أهل العلم في النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال أنا وقوف على
 كلمة قلها قلت ما أخرج الناس الى غير فليلي وما يدريك أنا أعلم بمصاحبة عبادي
 وقال بعض الصحابة لحاده يوماً مات لي السفر فنبئت بها ثم قال استغفر الله ما أنكلم
 بكلمة إلا وأنا أخطئها وأزعمها الإهذه الكلمة خرجتني بغير خطام ولا زمام أو كما قال
 والسير حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد وأختلف السلف والخلف
 هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط على قواين أظهرهما الأول وقال بعض السلف
 كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ما كان من ذكر الله وما والآء وكان الصديق رضي الله عنه
 يمسك لسانه ويقول هذا أوردني الموارد والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت
 أسيره والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول الألبدي رقيب عتيد وفي اللسان آفتان
 عظيمتان إن خاص العبد من أحدهما لم يخلص من الآخرة آفة الكلام وآفة السكوت وقد

يكون كل منهما أعظم إنما من الاخرى في وقتها فالساكت عن الحق شيطان أحرس عاص لله صراة مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا السنهم عن الباطل واطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا يري أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره في آخرته وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

فصل ❦

وأما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجوا ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالعود عنها خيره ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينوبها الله فيقع خطاه قربة وتقلب عاداته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان جاءت أحدهما قرينة الاخرى في قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

فصل ❦

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لا يجل دم امرء مسلم إلا بأحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ونظير حديث ابن مسعود بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاكفر وقوعا ثم بالذي يليه فالزنا أكثر وقوعا من قتل النفس وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها وأيضا فإنه انتقال من الاكبر الى ما هو أكبر منه مفسدة ومفسدة الزنا مناقضة لصالح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤسهم بين الناس وإن حماة من الزنا فإن قتل ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخالهم وانتسب اليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفسد زناها وأما زنا الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضا وإفساد

المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد في هذه الكيرة خراب الدنيا والدين وان عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المنف بين الناس ومن خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يتمه ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ولو باغ العبد أن امرأته أوحرمته قتل كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت وقال سعيد بن عباد رضي الله عنه لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغيرني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن متفق عليه وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثني على نفسي وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال يا أمة محمد والله إنه لأحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ثم رفع يديه فقال اللهم هل بلغت وفي ذكر هذه الكيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال لا حدثكم حديثنا لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون الخمسين امرأة القيم الواحد وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة قال عبد الله بن مسعود ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بأهلها ورأي بعض أخبار بني إسرائيل إنسالة يغامر امرأة فقال مهلا يا بني فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت إمرأته وقيل له هكذا غضبك لي لا يكون في جنسك خيراً أبداً وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص أحدها القتل فيه بأشنع القتل وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتفريبه عن وطنه سنة الثاني أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزنا رافة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة

الحد عليهم فانه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم وهم ولم تمنعه
 رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا
 وإن كان عاماً في سائر الحدود ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة الى ذكره فان الناس
 لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجسدونه على السارق والقاذف وشارب
 الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك
 فهو أن تأخذهم هذه الرأفة وتحمهم على تعطيل حد الله عز وجل وسبب هذه الرحمة أن هذا
 ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشاركت فيه
 كثيراً أكثر أسبابه المشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعده
 طاعة وقربة وإن كانت الصورة المشوقة محرمة عاها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر
 عند من شاء الله من أشباه الأنعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثيراً أكثره عن ناقصي
 العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضاً فان هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين
 فلا يقع فيه من العدوان والظلم والانتصاب ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبية له فتصوّر
 ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان وكال الإيمان أن
 تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقاً لربه سبحانه في أمره
 ورحمته * الثالث أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة
 حيث لا يراها أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر وحد الزاني المحصن
 مشق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنا واللواط في
 الفحش وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فان في اللواط من المفسد
 ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فانه يفسد فساداً
 لا يرجي له بعده صلاح أبداً ويذهب خيره كله وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه فلا
 يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل
 السم في البدن وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين سمعت شيخ
 الاسلام رحمه الله يحكمهما والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجاجاً بأمور منها أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا فاذا كان هذا حال ولد الزنا مع انه لا ريب له في
 ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير ان لا يجي منه خير أبداً لانه مخلوق من
 نطفة خيثة واذا كان الجسد الذي تربي على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق
 من النطفة الحرام قالوا والمفعول به شر من ولد الزنا وأخزي وأخبت وأوسخ وهو
 جدير أن لا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه وكل عمل خيراً قبض الله له ما يفسده

عقوبة له وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ولا يوفق لعمل صالح ولا أعلم نافع ولا توبة نصوحا والتحقيق في هذه المسألة أن يقال إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأتاب وورزق توبة نصوحا وعملا صالحاً وكان في كبره خيراً منه في صغره وبذل سيئاته بحسنات وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات وصدق الله في معاملته فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة فإن الله يغفر الذنوب جميعاً وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلاً وفضلاً أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وقد ضمن الله سبحانه أن تاب من الشرك وقتل النفس والزنا أنه يبذل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا في حق التائبين خاصة وأما مفعول به كان في كبره شرأ مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوحا ولا لعمل صالح ولا استدرك ما فات ولا أحيى ما مات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات الخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى وتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتضاعف الحسنات وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم بحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمال السيئة قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبلي رحمه الله واعلم أن لسوء الخاتمة أعادنا الله منها أسباب ولها طرق وأبواب أعظهما الانكباب على الدنيا وطاهاها والحرص عليها والاعراض عن الأخرى والاقدام والجرأة على معاصي الله عزوجل وربما غلب على الانسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الاعراض ونصيب من الجرأة والاقدام فملك قلبه وسي عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجب فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجوت فيه . ووعظة فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين له المراد ولا علم ما أراد وان كرر عليه الداعي وأعاد قال ويروي أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل لا إله إلا الله فقال الناصر مولاي فأعاد عليه القول فقال مثل ذلك ثم أصابته غشية فلما أفاق قال الناصر مولاي وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا إله إلا الله قال الناصر مولاي ثم قال لابنه يا قتلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك قال عبد الحق رحمه الله وقيل لآخر ممن أعرفه قل لا إله إلا الله فجعل يقول أدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والبستان

الفلائی افعلوا فیہ کذا قال وفیما أذن لی أبو طاهر السلمي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت فقیل له قل لا إله إلا الله فجعل يقول بالفارسیة ده یازده تفسیرہ عشرہ باحدی عشر وقیل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول * أين الطريق الی حمام منجاب * قال وهذا الكلام له قصة وذاك أن رجلاً كان واقفاً بازاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر فقالت أين الطريق الی حمام منجاب فقال هذا حمام منجاب فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها فی داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه وقالت خدعة منها له ونحیلاً لتخلص مما أوقعها فیہ وخوفاً من فعل الفاحشة یصلح أن یكون معنا ما یطیب به عیشنا وتقربه عیوننا فقال لها الساعة آتیک بكل ما تریدین وتشهین وخرج وتركها فی الدار ولم یفلقها فاخذ ما یصلح ورجع فوجدها قد خرجت وزهبت ولم یخنه فی شیء فهم الرجل وأکثر الذکر لها وجعل یمشی فی الطرق والازقة ویقول

یارب قاتلة یوماً وقد تمبت * أين الطريق الی حمام منجاب

فینا یقول ذلك واذا بجاریته أجابته من طاق قرنان

هل لا جعلت سریباً إذ ظفرت بها * حرزاً علی الدار أو قفلاً علی الباب

فازداد هیانه واشتد هیجانه ولم یزل كذلك حتی كان هذا الیوم آخر كلامه من دنیا قال ویری أن رجلاً عشق شخصاً فاشتد کلفه به وتمکن حبه من قلبه حتی وقع المأبیه ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص علیه واشتد نفارده عنه فلم یزل الوسائط یمشون بینهما حتی وعده أن یعوده فاخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلی غمه وجعل ینتظر للمیعاد الذي ضرب به له فینا هو كذلك اذ جاءه الساعي بینهما فقال انه وصل معی الی بعض الطريق ورجع فرغبت الیه وکلمته فقال انه ذکرني ویرح بی ولا أدخل مداخل الیرب ولا أعرض نفسي لمواقع أتهم فعاودته فأبی وانصرف فلما سمع البائس ذلك أسقط فی یده وعاد الی أشد مما كان به وبدت علیه علامت الموت فجعل یقول فی تلك الحال

أسلم یراحة العلیل * ویاشفاء المدنف التحیل

رضاک أشهی الی فؤادی * من رحمة الخالق الجلیل

فقلت له یافلان اتق الله قال قد كان فقامت عنه فما جاوزت باب داره حتی سمعت صیحة الموت فعیاذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة ولقد بکی سفیان الثوري لیلة الی الصبح فلما أصبح قیل له أكل هذا خوفاً من الذنوب فاخذ تبنه من الارض وقال الذنوب أهون من هذه وإنما أبکی خوفاً من الخاتمة وهذا من أعظم الفقه ان یخاف الرجل ان یخدعه

ذنبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى وقد ذكر الامام احمد عن أبي الدرداء أنه لما اختصر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقراً ونقاب أفتدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حججاً بينهم وبين الخاتمة الحسنى قال واعلم أن سوء الخاتمة أعادنا الله تعالى منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصاح باطنه ماسع بهذا ولا علم به والله الحمد وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو اصرار على الكبيرة واقدام على العظائم وربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطم قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله قال ويروي أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلوات فيه وعائيه بهاء الطاعة ونور العبادة فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار النصراني فاطلع فيها فرأى إبنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها فقالت له ماشأنك وما تريد قال أريدك قالت لماذا قال قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي قالت لا احبيك الى ريبة أبداً قال أتزوجك قالت أنت مسيء وأنا نصرانية وابي لا يزوجني منك قال انصرك قالت ان فعلت افعل فتصير الرجل ليتزوجها واقام معهم في الدار فلما كان في اثناء ذلك اليوم رقى الى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وقاته دينه

﴿ فضل ﴾

ولما كانت مفسدة اللواط من اعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من اعظم العقوبات وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنا او الزنا أغلظ عقوبة منه او عقوبتهما سواء على ثلاثة اقوال فذهب ابو بكر الصديق وعلى بن ابي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعه بن ابي عبد الرحمن ومالك واسحق بن راهويه والامام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في احد قوله الى ان عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن وذهب عطاء بن ابي رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقادة والاوزاعي والشافعي في ظاهر مذهبه والامام أحمد في الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى ان عقوبته وعقوبة الزاني سواء وذهب الحاكم والامام أبو حنيفة الى ان عقوبته دون عقوبة الزاني وهي التعزير قالوا لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه حدّاً مقهوراً فكان

فيه التعزير كما كل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا ولأنه وطؤ في محل لا تشبهه الطبائع بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطي الخمار وغيره قالوا ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً فلا يدخل في النصوص من الدلالة على حد الزانيين قالوا ولأننا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى بذلك الوازع عن الحد وإذا كان في الطبائع تقاضياً جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد في الزنا والسرقه وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا وطرد هذا أنه لا حد في وطئ البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من وطئ الرجل الرجل أشد نفرة كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنا فإن الداعي فيه من الجانبين قالوا ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد كما لو تساحقت المرأتان واستتمت كل واحدة منهما بالآخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة ليس في المعاصي مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهي تلى مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سئنه ان شاء الله تعالى قالوا لم يتبلي الله تعالى بهذه الكيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً فنكل بهم نكالا لم ينكله بامة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تמיד من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب عن أهلها فيصيبهم معهم وتبع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها وقتل المفعول به خير له من وطئه فانه إذا وطأ الرجل قتله قتلاً لا رجح الحياة معه بخلاف قتله فانه مظلوم شهيد وربما ينتفع به في آخرته قالوا والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفى وحم قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه فقال ما فعل هذا الأمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد فخرقه وقال عبد الله بن عباس ان ينظر أعلا ما في القرية

فيرمى اللوطى منها منكساً ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية قوم لوط وابن عباس هو الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث واسناده على شرط البخارى قالوا وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط ولم تجيء عنه لعنة الزانى ثلاث مرات في حديث واحد وقد لعن جماعة من أهل الكبراء فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله لم يختلف منهم فيه رجالان وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله فحكاهم مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة نزاع قالوا ومن تأمل قوله سبحانه ولا تقربوا الزنا فإنه كان فاحشة ومقتا وساء سيلاً وقوله في اللواط أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين تبين له تفاوت ما بينهما فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا أي هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لعاني اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد فهي اظهور فحشها وكاله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم الى غيرها وهذا نظير قول فرعون لموسى وفعلت فعلتك التي فعلت أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه شأن فحشها بانها لم يعملها احد من العالمين قباهم فقال ما سبقكم بها من احد من العالمين ثم زاد في التأكيده بان صرح بما تشتمر منه القلوب وتنبوا عنها الالهام وتنفر منه أشد التنفور وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال أنكم لتأتون الرجال ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وان الحامل لهم عليه ليس الا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لاجلها مال الذكر الى الأنثى من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنبئ المرأة لها أبوها وتذكر بعلمها وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالانبياء والاولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي صلى الله عليه وسلم الانبياء بامته الى غير ذلك من مصالح النكاح والمفسدة التي في اللواط لقوم ذلك كما ورثي عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله الا الله عز وجل ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الامر وعكسوا الفطرة والطبيعة فاتوا الرجال شهوة من

دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وكذلك قابوهم ونكسوا في العذاب على رؤسهم ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال بل أتم قوم مسرفون فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريبا منه في الزنا وأكّد سبحانه ذلك عليهم بقوله ونجينا من القرية التي كانت تعمل الجبائث ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وسامهم مفسدين في قول نبيهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين وسامهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه الذمات ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه باهلاكم فقبل له بإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاؤا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صوراً فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رأهم قال لهم يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فقد أضيافه بناته يزوجهن من خوفاً على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد لقد علمت مالئني بناتك من حق وإنك تعلم ما تريد فنضت نبي الله نفةً مصدور وخرجت من قلب مكروب عميد فقال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه إنه ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبا بهم وهون عليك فقالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ومبشروه بما جاؤا به من الوعدله ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعد هلاكهم وقال أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة أليس الصبح بقريب فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بان يقام عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل فقال عز من قائل فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بماسه وهم في سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون تفلت علي تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون

ما رب كانت في الحياة لأهلاً * عذاباً فصارت في الممات عذاباً

ذهبت اللذات ، • وأعقبت الحسرات • واتقضت الشهوات • وأورثت الشقوات • تمتعوا قليلاً • وعذبوا كثيراً • رتعوا مرتعاً وخيماً • فأعقبهم عذاباً أليماً • أسكرتهم خمر تلك الشهوات فاستفاقوا منها إلا في ديار المعذبين • وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين • قدموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم • وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم • فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم • وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم • ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون • ذوقوا ما كنتم تكسبون • إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عايكم إنما مجزون ما كنتم تعملون • ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل فقال مخوفاً لهم بأعظم الوعيد وماهي من الظالمين ببعيد

فإننا كح الذكر إن تهنيكم البشري * فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كأوا واشربوا وازنوا ولوطوا واكثروا * فإن لكم زقاً إلى نار الكبري
فأخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم * وقالوا أينا عجلوا لكم البشري
وهانحن أسلاف لكم في انتظاركم * سيجمعنا الجبار في نار الكبري
ولا تحسبوا أن الذين نكحتموا * يغيثون عنكم بل ترونهم جرمي
ويامن كلاً منهم لخليه * ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كل منهم بشريكه * كما اشركا في نذة توجب الوزري

فصل

في الأجوبة عما إحتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا أما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً فجوابه من وجوه أحدها إن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً وما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم فأنما شرعه عن الله فان أردتم ان حددها غير معلوم بالشرع فهو باطل وإن أردتم إنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك إنتفاء حكمه لثبوته بالسنة الثاني إن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة فان قلتم بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبني حكمه قلنا فينتقض عليكم بحد شرع

اسم الثالث أن نفي دليل معين لا يلزم نفي مطلق الدليل ولأنني المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيته وهو غير مشتق وأما قولكم أنه وطاء لأن شبيهه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والهيممة فجوابه من وجود أحدها أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه الثاني أن قياس وطاء الأمر الجميل الذي تربي فتنه على كل فتنة على وطاء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس وهل تعدل ذلك أحد قط باتان أو بقرة أو ميتة أو يسي ذلك عقل عاشق أو أسرقابه أو استولى على فكره ونفسه فليس في القياس أفسد من هذا الثالث أن هذا منتقض بوطء الام والبنات والاختلاف فان النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغاظ الحدود في أحد القوانين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو قول إسحاق بن رهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى أبو داود من حديث البراء بن عازب قال لقيت عمي ومعه الزبية فقلت له إلى أين تريد قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وأخذ ماله قال الترمذي هذا حديث حسن قال الجوزجاني عم البراء اسمه الحارث بن عمرو في سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقع على ذات محرم فاقتلوه ورفعه إلى الحجاج رجلاً اغتصب أخته على نفسها فقال أحببوه وأسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من نخطي حرم المؤمنين نخطوا وسطه بالسيف وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة وهو أن من لا يباح وطاءه بحال فحد واطئه القتل دليه من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال في وطاء ذوات المحارم من وطاء من لا يباح وطاءه بحال كان حده القتل كاللوطي والتحقيق أن يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد إتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وإنما اختلفوا في صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزاني على قولين فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايته إن حده حد الزاني وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال وكذلك إتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح علماً بالتحريم أنه يحد إلا أبا حنيفة وحده فانه رأى ذلك شبهة مسقطه للحد والمنازعون يقولون إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة فانه إرتكب محذورين عظيمين محذور العقد ومحذور الوطاء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقداً إلى محذور الزنا وأما وطاء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره

أحدها انه يجب به الحد وهو قول الاوزاعي فان فعله أعظم جرماً وأكثر ذنباً لانه انضم الى هتك فاحشة حرمة الميتة

﴿ فصل ﴾

وأما وطء البهيمة فالفقهاء فيه ثلاثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولا حد عليه وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قولييه وهو قول إسحاق والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكراً ويرجم إن كان محصناً وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد ويخرج على الروایتين في حده هل هو القتل حتماً أو هو كالزاني والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوهام معه قالوا ولانه وطء لا يباح بحال فكان فيه القتل حداً للوطء ومن لم يرد عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسمعيل بن سعيد الشافعي سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك أو قال الطحاوي الحديث ضعيف وأيضاً فرواية ابن عباس وقد أفقى بأنه لا حد عليه قال أبو داود وهذا يضعف الحديث ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن آيات البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط وليس الأمران في طباع الناس سواء فالحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

﴿ فصل ﴾

وأما قياسكم وطء الرجل لثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الإيلاج وإن اطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والضم وإذ ثبت هذا فاجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك حكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الانسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فان تاب والاقبل وضرب عنقه وتلوط الانسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم

﴿ فصل ﴾

فان قيل مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء المضال ورقية لهذا السحر القتال وما

الاحتیال لدفع هذا الخيال وهل من طريق قاصد الى التوفيق وهل يمكن السكران بنخمرة الهوى أن يفیق وهل يملك العاشق قلبه والعشيق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه لان لامه لأم التذ بلامه لذكره لمحبوبه وان عدله عاذل أغراء عدله وسار به في طريق مطلوبه ينادي عليه شاهد حاله باسان مقاله

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا * مامن بهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هوائك انيذة * حبا لذكرك فليعلمني الاوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الاول الذي وقع عليه الاستفتاء عليه والداء الذي طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أسأله وما أنزل الله سبحانه من داء الا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهاه من جهاه والكلام في دواء هذا الداء من طريقين . أحدهما جسم مادته قبل حصولها . والثاني قاعها بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فان أزمة الامور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فامر ان أحدهما غض البصر كما تقدم فان النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفي غض البصر عدة منافع . أحدها أنه إمتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من إمتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بإمتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة الا بتضييع أوامره . الثاني أنه يمنع من وصول أثر السم المسموم الذي لعل فيه هلاكه الى قلبه . الثالث أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه . الرابع أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه . الخامس أنه يكسب القلب نورا كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الامر بغض البصر فقال قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم قال أثر ذلك الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات اليه من كل جانب كأنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى وإجتباب هدى وإعراض عن أسباب السعادة وإشتغال بأسباب الشقاوة فان ذلك انما يكشفه له النور الذي في القلب فاذا

فقد ذلك النور بقى صاحبه كالاعمى الذي يجوس في حنادس الظلام . السادس أنه يورث
 الفراسة الصادقة التي يميزها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه بن شجاع
 الكرمانى يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم
 وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاع هذا لا تخطي
 له فراسة والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئاً لله
 عوضه الله خيراً منه فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً
 عن حبه بصره لله ويفتح له باب العلم والایمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي
 إنما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة
 فقال تعالى لعمر ك إنهم انى سكرتهم يعمهون فوصفهم بالسكره التي هي فساد العقل وعمه
 الذي هو فساد البصر فالتملق بالصورة يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل
 سكران سكر هوى وسكر مداة * ومتى إفاقة من به سكران

﴿ وقال الآخر ﴾

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين
 العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع إنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة
 وسلطان القدرة والقوة كما في الأثر الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا
 تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعن الله
 سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فان
 المصيبة لا تفارق رقابهم أبي الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العزقرين
 طاعته والذلقرين معصيته فقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال تعالى ولا تهنوا ولا
 تحزنوا وأتم الاعلون إن كنتم مؤمنين والایمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى من كان
 يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أي من كان يريد
 العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفي دعاء القنوت انه
 لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد وآاه فيما أطاعه فيه وله من العز
 بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته الثامن أنه
 يسد على الشيطان مدخله من القلب فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها الى القلب أسرع
 من نفوذ الهوى في المكان الخالي فيمثل له صورة المنظور اليه وزينها ومجملها صنما يمكنه
 عليه القلب ثم يعده ويغيبه ويوقد على القاب نار الشهوة ويبقى عليه حطب المعاصي التي لم

يكن يتوصل اليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التي يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات فان القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو في وسطها كالشاة في وسط التور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه الى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته التاسع انه يفرغ انقاب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً وإطلاق النظر يوجب هذه الامور الثلاثة بحسبه العاشر أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقاً يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وإن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالمزبنة التي هي محل التجاسات والقاذورات والاوساخ فلا يصالح اسكني معرفة الله ومحبه والانابة اليه والانس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه اضداد ذلك فهذه اشارة الى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ما ورائها

فصل في

الثاني اشتغال القلب بما يصدده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج فتنى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بدأ وفواته أضر عليه من فوات هذا المحرب لم يجد بدأ من عشق اله ور وشرح هذا ان النفس لا تترك محبوباً الا للمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين ان فقداً أو احد منهما لم ينتفع بنفسه أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر على المحبوبين على أدناها ويحتمل أدنى المكروهين لتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالاً منه الثاني قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير ما يعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأتي له ضعف نفسه وهيمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الامن أهل

الصبر واليقين فقال تعالى ويقول له يهتدي المهتدون وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره فالاول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره والثاني قد طفي نوره فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه والثالث يمشي في نوره وحده

فصل

اذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع في القلب حب المحبوب الاعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لا يجتمعان بل لا بد ان يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الاعلى الذي محبة ماسواه باطالة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ماسواه وان أحبه لم يحبه الا لاجله أو لكونه وسيلة له الى محبته أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وان لا يشرك بينه وبين غيره في محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأتف ويفار ان يشرك في محبته غيره ويمتته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويبعده كاذبا في دعوي محبته مع انه ليس أهلاً لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الاعلى الذي لا تنبغي المحبة الا له وحده وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبالا ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة الا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فانها لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق الى لقائه إبتلاه بمحبة غيره فيعذبها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة إما يعذبه بمحبة الاوثان أو بمحبة الصليان أو بمحبة الثيران أو بمحبة المردان أو بمحبة الذنوان أو بمحبة الاثمان أو بمحبة العسراء والحلان أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان فالانسان عبد محبوبه كلنا ما كان كما قيل

أنت القليل بكل من أحبيته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون

فصل

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئاً وخضع له فقد

تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتميم أيضاً فإن أول مراتبه العلاقة
وسميت علاقة لتماق الحب بالمحبوب قال الشاعر

وعلفت ليلى وهي ذات تمام * ولم يبد الا تراب من نديها ضخم

وقال الآخر

أعلاقة أم الوليد بعد ما * أفنان رأسك كالبنام الأبيض

ثم بعدها الصباية وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبوب قال الشاعر

يشكى المحبون الصباية ليتني * تحمات ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقاها لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ومنه سمي الغريم غرباً لما لزمته
صاحبه ومنه قوله تعالى إن عذابها كان غراماً وقد أوعى المتأخرون باستعمال هذا اللفظ
في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إغراط المحبة ولهذا لا يوصف
به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحت
السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى كما في مسند الامام أحمد من حديث عمار بن
ياسر إنه صلاة فاجز فيها فليل له في ذلك فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان
النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهن اللهم إني أسئلك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق
أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي اللهم إني أسئلك خشيتك
في الغيب والشهادة وأسئلك كلمة الحق في الرضاء والغضب وأسئلك القصد في الفقر والغنى
وأسئلك نعيماً لا ينفذ وأسئلك قرة عين لا تنقطع وأسئلك الرضاء بعد القضاء وأسئلك برد
العيش بعد الموت وأسئلك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسئلك الشوق الى لقائك في غير
ضراء ومضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفي أثر آخر
طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقاً وهذا هو المعنى الذي عبر عنه
صلى الله عليه وسلم بقوله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال بعض أهل البصائر في
قوله تعالى من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه
الى لقائه وان تلويهم لا تهدي دون لقائه ضرب لهم أجلاً موعداً للاقائه تسكن قلوبهم به
وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المسأنين بحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة
ولا حياة لا بعد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى من
عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فانتحينه حياة طيبة وليس المراد منها الحياة
المشتركة بين المؤمنين والكفار والابرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح

(۱۷ - الدواء)

بل ربما زاد أعماله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحياه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وسارت هي واحدة في مرضات الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته في إنكاره التي كانت منقسمة بكل واحد منها شعبة على الله فصار ذكر محبته الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والانس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فيه يسمع وإن أبصر فيه يبصر وبه يبطن وبه يمشی وبه يحرك وبه يسكن وبه يحيى وبه يموت وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى وإن سئاني لأعطينه وإن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبضى روح عبدي المؤمن من يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فضمن هذا الحديث الشريف الألهى الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما تقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن الحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكته عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة فصار ذكر محبوبه ووجه مثله الأعلى مالكا لزام قلبه مستويا على روحه إسنيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب أن هذا المحب أن سمع سمع لمحبوبه وإن أبصر أبصر به وإن بطن بطن به وإن مشى مشى به فهو في قلبه ومعهم مؤانسه وصاحبه فالباة همنا باء النصاحبة وهى مصاحبة لانظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعالم بها فالمسألة خالية لاعلمية محضة وإذا كان المخلوق يجدهذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين

خيالك في عيني وذكري في في * ومثواك في قاي فأين تعيب

* (وقال الآخر) *

وتطلبهم عيني وهم في سوادها * ويشتاقيهم قاي وهم بين أضلعي

ومن عجب أني أحسن إليهم * فأستل عنهم من لقيت وهم معي

* (وهذا اللفظ من قول الآخر) *

إن قلت غبت قلبي لا يصدقني * إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أوقلت ما غبت قال الطرف ذاك كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب
فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير في المحبة أدنى إليه من
نفسه بحيث ينسى نفسه ولا ينساه كما قيل

أريد لأنسي ذكره فكأنما * تمثل لي ليلى بكل سبيل

* (وقال الآخر) *

يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فإن هذه الآلات آلات الإدراك
وآلات الفعل والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ويجابان إليه الحب
والبغض فتستعمل اليد والرجل فإذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات
إدراكه فكان محفوظاً في حبه وبغضه فحفظ في بطشه ومشبه وتأمل كيف اكتفى بذكر
السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره
تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجاء ذلك حركة اليد والرجل
التي لا بد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التي لا يقع إلا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد
عنها إلا حيث أمر بها وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فإنه
ترجمته ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذي يبصر به
وبطشه ومشبه بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها
ورجله التي يمشي بها تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده في إدراكه بسمعه وبصره
وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بي يسمع وبني يبصر وبني يبطش ولم يقل فلي
يسمع ولي يبصر ولي يبطش وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدل
على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا إن الوهم والغلط إذ
ليست الباء هنا مجرد الاستعانة فان حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمؤنة الله
لهم وإن الباء هنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه وسأدق قوله
في الحديث الآخر أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه وهذه المعية هي المعية الخاصة
المذكورة في قوله تعالى إن الله معنا وقول النبي صلى الله عليه وسلم ما ظنك بأثنين الله
تألهما وقوله تعالى وإن الله مع المحسنين وقوله إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون
وقوله واصبروا إن الله مع الصابرين وقوله كلا إن معي ربي سيهدين وقوله تعالى لموسى

وهارون إني معكما أسمع وأرى فهذه الباء مفيدة بمعنى هذا المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعية فتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقابت المخاوف في حقه أماناً فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الاحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود اليه وما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال واثن سئلني لاعطينه واثن استعاذ بي لأعيدنه أي كما وافقتني في مرادي بامتثال أوامري وانتقرب الي بمحابي فانا أوافقته في رغبته ورهبته فيما يسئلي أن أفعل به ويستعيني أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إمامته عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكره عبده ويكره مسأته فمن هذه الجهة تقتضى انه لا يمتهه ولكن مصابحته في إمامته فانه ما أماته الا بحببه وما أمرضه الا ليصحه وما أفقره الا ليفنيه وما منعه الا ليعطيه ولم يخرج من الجنة في صاب أبيه الا ليعيده اليها على أحسن الاحوال ولم يقل لا يبدأ خرج منها الا ليعيده اليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواد بل لو كان في كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده

نقل فؤاد حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كمنزل في الارض يألفه الفتى * وحينه أبداً لأول منزل

- فصل -

ثم التيم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله أي عبده الله وحقبة التعبد الذل والخضوع للمحجوب ومنه قواهم طريق معبد أي مذلل قد ذلته الاقدام فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع للمحبوبه وهاذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة اليه ومقام التجدي بالنبوة ومقام الاسرى فقال سبحانه وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداء وقال وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وقال سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وفي حديث الشفاعة إذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر

فقال مقام الشفاعة بكامل عبوديته وكال مغفرة الله له والله سبحانه خالق الخلق لعبادته
 وحدد لاشريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذا هو
 حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ومن يرغب
 عن ملة ابراهيم الا من سفه الآيه ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لا يغفر
 أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء واصل الشرك بالله الا شراك مع الله في المحبة
 كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا
 أشد حبا لله وأخبر سبحانه إن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه
 يحبهم كحب الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأناداهم وقيل بل
 المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله فانهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين
 اندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خالصت محبتهم له كانت أشد من محبة
 أولئك والعدل رب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ولما كان مراد الله
 من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفعياً غاية الإنكار
 وجمع ذلك تارة وأقر واحدها عن الآخرة بالإنكار فقال تعالى إن ربكم الله الذي خلق
 السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الا من بعد
 اذنه وقال تعالى الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على
 العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون وقال تعالى وأنذره الذين يخافون
 أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون وقال في الأفراد أم
 اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً
 وقال تعالى من وراءهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء
 ولهم عذاب عظيم فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له ولياً من شفعاء وعقد الموالاة بينه
 وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً أولياءه من دون الله
 فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي انما تنال
 بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدي من
 يشاء الى صراط مستقيم والمقصود ان حقيقة العبودية وموجباته لا تخص مع الاشراف بالله
 في المحبة بخلاف المحبة لله فانها من لوازم العبودية وموجباتها فان محبة الرسول صلى الله عليه
 وسلم بل تقديمه في الحب على النفس وعلى الآباء والابناء لا يتم الايمان الا بها اذ محبته من
 محبة الله وكذلك كل حب في الله والله كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال
 لا من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان وفي لفظ في الصحيح لا يجد عبد طعم الايمان

الا من كان في قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وان يحب المرأ لا يحبه الا الله وان يكره أن يرجع الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار وفي الحديث الذي في السنن من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع لله فقد استكمل الايمان وفي حديث آخر ما تحب رجلا في الله الا كان أفضلها أشدها حباً لصاحبه فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكل ما كانت أقوى كان أصلها كذلك

فصل

وهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما أحدها محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بشوابه فان المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله الثاني محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها الثالث الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحب الله الا بالحب فيه وله الرابع المحبة مع الله وهي المحبة الشركية وكل من أحب شيئاً مع الله لالله ولا من أجله ولا فيه فقد أخذ نداءً من دون الله وهذه محبة المشركين وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فلك لا تذهبالا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال تعالى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

فصل

ثم الخلقة وهي متضمنة كل المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في القلب لمحبة سعة لغير محبوبه وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليين صلوات الله وسلامه عليهما إبراهيم ومحمد كما قال صلى الله عليه وسلم إن الله إتخذني خليلاً كما إتخذ إبراهيم خليلاً وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لا أتخذت أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله وفي حديث آخر اني أبرئ الى كل خليل من خلته ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فاعطيه فعلق حبه بقلبه فاخذ منه شربة غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فامر بذبحه وكان الامر في المنام ليكون تنفيذ الأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل عليه الصلوات والسلام الى الامتثال وقدم

محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فان الرب تعالى لما أمر بشيئ ثم أبطله رأساً بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الحسين وأبقى ثوابها وقال لا يبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الاجر

فصل ١٠

وأما ما يذنه بعض الظانين ان المحبة أكمل من الحلة وان إبراهيم خليل الله ومحمد صلى الله عليه وسلم حبيب الله فمن جهله فان المحبة عامة والحلة خاصة والحلة نهاية المحبة وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله اتخذ إبراهيم خليلًا ونبي أن يكون له خليل غير ربه مع اخباره لجه لعائشة ولابيهامولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضاً فان الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المتسطين وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام والشاب الثاب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

فصل ١١

وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفها محبة لأقواها محبة كما انه يفعل ما يكره لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يقطعه والخلاص من كروه كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعاله وتقدم ان خاصية العقل إشار على المحبوبين على أدناها وأيسر المكروهين على أقواها وتقدم ان هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بامر من قوة الادراك وشجاعة القلب فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون ما بضعف الادراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف في النفس وعجز في القلب لا يطاوعه الاشارة الاصحاح له مع علمه بأنه الاصلاح فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إشار المحبوب الاعلى والمكروه الادنى فقد وافق لاسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطيب عما يضره فتأباً عليه نفسه وشهوته لإلتناوله ويقدم شهوته على عقله وتسعيه الاطباء عديم المرؤة فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فاصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودنائتها وأصل الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها فالحب والارادة أصل كل فعل

ومبدأه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدأه وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود العقل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والارادة وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الامر والنهي وهو يسمى الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك هل هو أمر وجودي أو عدمي والتحقيق انه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضي عدمي والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودي

فصل ❦

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثر الحي لما فيه من الحصول والمنفعة التي يتد بحصولها أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال

هي الشفاء لداء لو ظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتى الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً فية صد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب وخاصة العقل النظر في العواقب فاعقل الناس من أثر لذة نفسه وراحته في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفه الخلق من باع نعيم الابد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنفيس فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت في سمي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله رأيهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والنم عن نفوسهم فهذا في الاكل والشرب وهذا في التجارة والكسب وهذا بالتكاح وهذا بسماع الغناء والاصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلاً اليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر الى الاقبال على الله وحده ومعانته وحده وإينار مرضاته على كل شيء فان سالك هذا الطريق ان فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالخط العالي الذي لا فوت معه وإن حصل للعبد حصل له كل شيء وإن فاته فاته كل شيء وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهني الوجوه فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه الى لذته وبهجته وسعادته وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾

والمحجوب قسمان محبوب لنفسه ومحجوب لغيره ولا بد أن ينهي إلى المحجوب لنفسه دفعا لتسلسل المحال وكل ما سوى المحجوب الحق فهو محجوب لغيره وليس شيء يحب انفسه الا الله وحده وكل ما سواه مما يحب فانما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وانبيائه وأوليائه فانها تبع محبته سبحانه وهي من لوازم محبته فان محبة المحجوب توجب محبة ما يحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لا تنفع بل قد تضر واعلم انه لا يحبه لذاته الا من كاله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وما سواه فانما يبغض ويكره منافاته محابه ومضادتها وبغضه وكرهته بحسب قوة هذه المناقاة وضمنها فانما كان أشد منافاة لمحابه كان أشد كراهة من الاعيان والاصناف والافعال والارادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فاذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وأثره عنده وكما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه علمنا ان فيه من موالات الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الاصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحجوب لغيره قسمان أيضا أحدهما ما يتذم المحب بادراكه وحصوله والثاني ما يتألم به ولكن يحتمله لافضائه إلى المحجوب كشراب الدواء الكريه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون فاخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع إنهم خير لهم لافضائه إلى أعظم محجوب وأنفسه وانفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شرها لافضائه إلى فوات هذا المحجوب فالعقل لا ينظر إلى لذة المحجوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فان ذلك قد يكون شرآله بل قد يجاب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة فالأمور أربعة مكروه يوصل إلى مكروه ومكروه يوصل إلى محجوب ومحجوب يوصل إلى محجوب ومحجوب يوصل إلى محجوب فالمحجوب الموصل إلى المحجوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين بقي قسمان الاخران يتجاوزهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جوار أمهما وهو العاجل والعقل

والعقل والایمان يؤثران نفعهما وإبقائهما والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى
هذا مرة وهما محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعي العقل والایمان ينادي كل وقت حي على الفلاح
عند الصباح بحمد القوم السري وفي الممات بحمد العبد التقي فان اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم
سلطان الشهوة والارادة يقول

يا نفس اصبري فما هي الاساعة * ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

فصل ❦

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الاعمال الدينية حب الله ورسوله
كإن أصل الاقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله
وتزاحم هذه المحبة وشبهه منع كمال التصديق في معارضة لأصل الايمان أو مضعفة له فان
قويت حتى عارضت أصلي الحب والتصديق كانت كفرا وشركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت
في كماله وأثرت فيه ضعفا وقتورا في العزيمة والطلب وهي تحجب الواصل وتقطع الطاب
وتسكي الراغب فلا تصلح المولات إلا بالمعادات كما قال تعالى عن إمام الخفاء المحين انه قال
لقومه أفرايتم ما كنتم تعبدون أتم وآبؤكم الاقدمون فانهم عدولي إلا رب العالمين فلم تصلح
لخليل الله هذه المولات والخلة إلا بتحقيق هذه المعادات فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة
من كل معبود سواه قال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا
لقومهم إن أبرآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنابكم وبدأيتنا وبينكم العداوة والبغضاء
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون
إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون أي جعل هذه المولات
لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الانبياء وأتباعهم بعضهم عن
بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الخفاء لاتباعه الي يوم القيامة وهي الكلمة
التي قامت بها الارض والسماوات وفطر الله عايبها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت
القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد وهي الكلمة العاصمة
للدن والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهي النور الذي
لا تدخل الجنة إلا به والحب الذي لا يصل الى الله من لم يتعلق بسببه وهي كلمة الاسلام
ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس الى شقي وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار
الكفر من دار الاسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهي العمود الحامل
للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها

ففرده الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والاحلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والابانة والرغبة والرغبة فلا يحب سواه بل كل ما كان يحب غيره فانما هو تبعاً لمحبة وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولا يخاف سواه ولا يرجي سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا اليه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا اليه ولا يطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان في الشدائد إلا به ولا يتجى إلا اليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى والذين هم بشهاداتهم قائمون فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من تكون نائمة اذا نهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون الى القيام أقرب وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لا يقوها عبد عند الموت الا وجدت روحه لها روحاً حياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما ان من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها فمن عاش على محبةها والقيام بها فروحها تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والانس بالله والشوق الى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه هنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً والابرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن اتسعت عنهم الدنيا قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضاهه يجعل صدره ضيقاً حرجاً فأني نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيّق من ضيق الصدر وقال تعالى ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم فالؤمن الخاص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدرأ وأسره قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال انبي صلى الله عليه وسلم إذا مررتم

رياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال خلق الذكر ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومن هذا قوله وقد سئلوه عن وصاله في الصوم وقال اني است كميئتكم اني اظل عند ربي يطعمني ويسقيني فاخبر صلى الله عليه وسلم ان ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي وان ما يحصل له من ذلك امر مختلف به لا يشركه فيه غيره فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب مثابه ويعنى عنه كما قيل

لها أحاديث من ذكر ان تشغافها * عن الشراب وتاهها عن الزاد

لها بوجهك نور يستضيء به * ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا اشتكت من كلال السير أو عدها * روح اللقاء فتحي عند ميعادي

وكل ما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقدته أشد وكل ما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شيء على الإطلاق أنفع لالعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتسمعه بحبه وإيثاره لرضائه بل لأحيائه له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه ألم شيء له وأشد عذاباً عليه وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعها لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك القوات وحسرتة حتى إذا يحيى وكشف عنه غطاء السكر وانتهى من رقدته الحرف فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومما ينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد باضعاف أضعاف ذلك فان المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض ويعلم إنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعاً فلو قضى الله سبحانه بالوت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت لا يعود أكبر أمنيته وأكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد القوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الامين العظيمين اللذين لا يحملهما الجبال الرواسي فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة الا معه فاصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل

من كل شيء اذا ضيعته عوض * وما من الله أن ضيعته عوض
وفي الأثر الإلهي بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تأعب وتكفرت برزقك فلا تتعب ابن
آدم أطبني تجديني فان وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فتك كل شيء وأنا أحب
إليك من كل شيء

فصل ❦

وما كانت المحبة جنساً نحتته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها
في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح إلا له وحده مثل العبادة
والإيابة ونحوها فان العبادة لا تصلح إلا له وحده وكذا الإيابة وقد ذكر المحبة باسمها
المطابق كقوله تعالى فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وقوله تعالى ومن الناس من يتخذ
من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأعظم أنواع المحبة المذمومة
المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبه لئذ الذي يتخذ من دون الله
وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو
أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في
العذاب إلا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار
من دخلها منهم بذنوبه فانه لا يبقى فيها منهم أحد ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة و
لوازمها والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للتوعين وذكر قصص
ولوازمها النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأولياتهم ومعبود كل منهما واخباره عن فعله
ونوعين وعن حال النوعين في الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقرآن
بافي شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إنما هو عبادة الله وحده
لا شريك له المتفطنة لسكال حبه وكال الخضوع والذل له والأجلال والتعظيم ولوازم
ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ووالده
والناس أجمعين وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا رسول الله
وانت أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من
نفسك فقال والذي بعثك بالحق أنت أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر فإذا كان هذا
شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة النفس ووالده ووالده
والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرساه سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ماسواه

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفرادد سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه فيكون إليه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله والشئ قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصالح الاوهية إلا له ولو كان فيها آلهة إلا الله لتسدنا والناله هو المحبة والطاعة والخضوع

﴿ فصل ﴾

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصنافها المحبة فهي عامها الفاعلية والغائية وذلك لان الحركات ثلاثة أنواع حركة إختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصنافها السكون وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود اليه ويخرج عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك الفاعل المحرك له فله حركة قسرية تتحرك بتحرك محركه وقاسمه وحركة طبيعية بذاتها تطالب بها العود إلى مركزه وكلا حركتيه تابع للبعيد المحرك الفاعل فهو أصل الحركتين والحركة الإختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخرتين وهي تابعة الإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية وإن لم يكن له شعور بها فالأولى أن يكون على وفق طبيعته الأولى فالأولى هي الطبيعية والغائية هي القسرية إذا فهمت هذا فافهم في السموات والأرض وما بينهما من حركات الافلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فانما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقدمات أمراً كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم الملائكة وبالقطر الملائكة وبالنبات الملائكة وبالرياح الملائكة وبالافلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وعلى شماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل الملائكة بقبض روحه ونفوسها إلى مستقرها من الجنة والنار والملائكة بمسأته وإمتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه والملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره والملائكة بتمذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ووكل بالحيال الملائكة وبالسحاب الملائكة تسوقه إلى حيث أمرت به والملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل الملائكة بنفوس الجنة وعمل آلائها وفرشها وثيابها والقيام عليها والملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمره

وليس لهم من الامر شيء بل الامر كله لله وهم يدبرون الامر ويقسمونه باذن الله وامره قال تعالي اخبارا عنهم وما ننزل الا بامر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا وقال تعالي وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى واقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره في الخليفة كما قال تعالي والصابقات صفاء فالزاجرات زجراً فالمايات ذكراً وقتاً والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرافاً فالفارقات فرقا فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً وقال تعالي وانازعات عرفاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالساقيات سيقاً فالمدبرات أمراً وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الاقسام في كتاب اقسام القرآن اذا عرف ذلك جميع تلك المحبات والحركات والارادات والافعال هي عباداتهم لرب الارض والسموات وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها فلولا الحب ما دارت الافلاك ولا تحركت الكواكب النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الامهات ولا انصدع عن الحب أنواع النبات ولا اضطربت أمواج البحار الزاجرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الارض والسموات وما فيها من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً

فصل في الاحاد

إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة والاصلاح للموجودات الا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها الا بأبداعه وحده ولهذا قال تعالي لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يعبدون ولم يقل سبحانه لما وجدنا ولكنا معدومتين ولا قال لعدمنا اذ هو سبحانه قادر على ان يبقيهما على وجه الفساد لكن لا يمكن ان تكون على وجه الصلاح والاستقامة الا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتهما وسكن فيهما فلو كان لهما إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يعطى مغالبة الآخر والعلو عليه وتفردد دونه بالالهية اذ الشرك نقص في كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه ان يكون إلهاً ناقصاً فان قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمنهور ليس باله وان لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب ان يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خاق وطاب كل منهما العلو على الآخر

وفي ذلك فساد أمر السموات والارض ومن فيهما كما هو المصنوع من فساد البند اذا كان فيها ما كان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بهلان والشول اذا كان فيه فخلان واصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء واهل الم تطامع أعداء الاسلام فيهم في زمن من الازمنة الا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطالب بعضهم الملو على بعض فصالح السموات والارض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الأدلة على انه لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل مهيود من لندن عرشه الى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال الله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون وقال تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وقال تعالى قل لو كان معي آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا قيل المعنى لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والتفهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله في الآية الاخرى ولعلى بعضهم على بعض قال شيخنا والصحيح ان المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدا له قل ويدل على هذا وجود ما قولته تعالى أو انك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دونه هم عبادي كما أنم بادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فاما إذا تعبدونهم من دونه الثاني انه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا قل لابتغوا اليه سبيلا وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب كقوله تعالى اتقوا الله وابتغوا الوسيلة وأما في المغالبة فالما يستعمل بملى كقوله فان أطمعكم فلان تبتغوا عابدين سبيلا الثالث إنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطالب الملو عليه وهو سبحانه قال قل لو كان معي آلهة كما يقولون وهم لما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زاني اليه قال تعالى لو كان الامر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له فاما إذا تعبدون عبيد من دونه

فصل في

والحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت مخددة أو مدمومة نافعة أو ضارة من الوجه والدوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من أحكامها

ولو ازمها والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهالة وظلمه فان النفس قد تهوي ما يضرها ولا يفهمها وذلك ظلم من الانسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بان تهوي الشيء ونحوه غير عاثة بما في محبته من المضره وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عاثة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تركب محبتها من أمرين من إعتقاد فاسد وهووي مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوي الانفس فلا تقع المحبة الفاسدة الا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة يشبهها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعو الى وصوله فيساعد جيش الشهوة والشهوة على جيش العقل والايان والغلبة لا قواها اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فان بكى نفعه وإن حزن نفعه وإن فرح نفعه وإن انبسط نفعه وإن انقبض نفعه فهو يتقارب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وريح وقوة والمحبة المضره المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيف ماتقارب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطون موطئاً يفيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون فأخبر سبحانه في الآية الاولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي بانسروها تكتب لهم أنفسهم والفرق بينهما ان الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل اعلم ماله وما عليه

سيعلم يوم العرض أي بضاعة * أضع وعند الوزن ما كان حصلاً

فصل في

وكما ان المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم فهي أصل كل دين سواء كان حقاً أم
(١٩ - الدوا)

باطلا فان الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والارادة اصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والحق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الحاق بالدين في قوله تعالى وإليك اعلى حاق عظيم قال الامام احمد عن ابن عينة قال ابن عباس اعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن حاق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن والدين فيه معنى الادلال والتفهير وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الاعلى الى الاسفل كما يقال دنته فدان أي قهرته فذل قال الشاعر

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين * فاصبحوا بغيره وصيان

ويكون من الادنى الى الاعلى كما يقال دنت الله ودنت لله وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين فدان الله أي أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أي خضع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فانه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لان اليوم الذي يدين فيه اناس فيه باعمالهم إن خيراً نجيح وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاؤهم وحسابهم فلذلك فسروا بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى فلولا إن كنتم غير مدينين لرجعونها إن كنتم صادقين أي هلا تردون الروح الى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سبقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله بحيث يتقلى الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليل على لازمه ولا يجب العكس ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا ربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما أن يقرروا بان لهم رباً قاهراً متصرفاً فيهم يتيمهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وأما أن لا يقرروا برب هذا شأنه فان أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامري والجزائي وإن أنكروه كفروا به فقد زعموا إنهم غير مربوبين ولا محكوم عليه ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يتدرون على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها اذا باغت الحاقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضروهم يماينون موته أي فهلا يردون الروح الى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عايكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التمجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة الى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان فياها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجرياتها عليهم والدين دينان دين شرعي أمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده فالدين كله أمراً

أوجزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فان ما شرعه وأمر به فانه بحبه وبرداده وما نهى عنه فانه يكرهه ويبغضه لئانفاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الامرى كله الى محبته ورضاه ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجهاً شرع وعالماً أسس وكذلك دينه الجزائى فانه يتضمن مجازات المحسن باحسانه والمسيء باسائه وكل من الامرين محبوب للرب فانها عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إنه قال اقوموا لى أشهد الله وأشهدوا لى برى مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون لى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم والمعلم لى الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والاحسان والفضل ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في مواضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك في أما كنهه ومحاله اللائقة به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان إذ نادى على رؤس الملأ من قومه بجهان ثابت وقاب غير خائف بل متجرد لله لى أشهد الله وأشهدوا لى برى مما تشركون من دونه الآية ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شىء لعظمته فقال ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو فى قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الامر الا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوراً ولا ظلمه فلا أخاف مادونه فان ناصيته بيده ولا أخاف جوراً ووظلمه فانه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض فى عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لا يخرج فى تصرفه فى عباده عن العدل والفضل إن أعطي وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته وإن سخط رآه ان وأضل وخذل وشقى فبعده وحكمته وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا وفى الحديث الصحيح ما أصاب عبد قط هم ولا حزن فقال اللهم لى عبدك ابن عبدك ابن أمك ناصيتى بيديك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسئلك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم



ربيع قباي ونور سدرى وجلاء همى وحزنى وذهاب همى وغمى إلا ذهب الله همه وغمه
وأبدله فرجا مكانه وهذا يتناول حكم الرب الكونى والامرى والقضاء الذى يكون باختيار
العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماضى في عبده وكلا القضاءين عدل فيه فهذا الحديث
مشتق من هذه الآية بينهما أقرب سب وبالله التوفيق

فصل في

ونحتم الجواب بفصل متعلق بمشق الصور وما فيه من المفسد العاجلة والآجلة وإن
كانت أضعاف ما يذكر ذلك فانه يفسد القاب بالذات وإذا فسدت الارادات والاقوال
والاعمال وفسد ثمر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى
إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فاخبر عن عشق امرأة
العزیز اىوسف وماراودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار اليها يوسف بصبره وعفته
وتقواه مع إن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فان موافقة الفعل
بحسب قوة الداعى وزوال المانع وكان الداعى هاهنا في غاية القوة وذلك لوجود أحدها
ماركب الله سبحانه في طبع الرجل من مياحه الى المرأة كما يميل العطشان الى الماء والجائع
الى الطعام حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا
لا يذم اذا صادف حلال بل يحمى كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن
عطية الصغار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم حبيب الى من دنياكم
الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عنهن الثاني أن يوسف عليه السلام كان
شاباً وشهوة الشاب وحده أقوى اثبات أنه كان عزباً لزوجته ولا سرية تكسر شهوة الشهوة
الرابع أنه كان في بلاد غربة يتأني لغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأني فيه في وطنه
وأهله ومعارفه الخامس أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين
الامرین يدعو الى موافقتها السادس أنها غير آبية ولا متمتعة فان كثيراً من الناس يزيل
رغبته في المرأة إياؤها وامتناعها للمجرد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من
الناس يزيد الالباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر

وزادني كافاً في الحب إن منعت * أحب شيء الى الانسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل
عند إياؤها وامتناعها وأخبرني بعض القضاة ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته
أو سرية وإياها بحيث لا يعاودها ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمتع ويشد شوقه بكل

مأموع ومحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالظفر بالضم بعد ابتناعه ونفاره
واللذة بأدراك المستنعة بعد إستصعابها وشدة الحرص على إدراكها السابع أنها طابرت وأرادت
وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطالب وذل الرغبة إليها بل كانت هي الرغبة لذاتية وهو العزيز
المرغوب إليه الثامن إنه في دارها ونحت ساطعها وقهرها بحيث لا يخفى إن لم يتأوهها من
إذا هاله فاجتمع داعي الرغبة والرغبة التاسع إنه لا يخفى أن تمني عليه هي ولا أحد من جهتها
فإنها هي الطالبة والرغبة وقد غلقت الأبواب وغويت الرقباء العانس إن كان ممنوكا لها في الدار
بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الأمن سابقا على الطاب وهو من
أقوى الدواعي كما قيل لامرأة شريفة من أنسراف العرب ما حثت على الزنا قالت قرب
الوساد وملول السواد تعني قرب وساد الرجل من وسادتي وملول السواد بيننا الحادي
عشر أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتياك فزرتهم يأنهن وشكت حلها اليهن لتستعين
بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال وإلا تصرف عني كيدهن أحب اليهن وأكن من
الجاهلين الثاني عشر أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن
يغاب على الغن وقوع ما هدد به فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن
والصغار الثالث عشر أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلامهما
عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال أيوسف أعرض عن هذا والمرأة إستغفري
لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه
غيرة ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضات الله وخوفه وحمه حبه لله على أن اختار السجن
على الزنا فنال رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه
وان ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن حبها اليهن بطبعه وكان من الجاهلين
وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على
الف فائدة لعائنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل

فصل في

والطائفة الثانية الذين حكى الله عنهم العشق هم المواطنين كما قال تعالى وجاء أهل المدينة
يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا ألم نهبك عن
العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعاين لعمر ك إنهم اني سكرتهم يعمهون فهذا عشقة فحكاة
سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يبان بما في عشقه من الضرر
وهذا داعي الأطباء دواؤه وعن عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القاتل

الذي ماعاق بقلب الا وعز على الوردى إستنقاذه من إسارة ولا اشتعلت نار في مهجة إلا
وصعب على الخالق تخايبها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفر لمن إتخذ معشوقه
ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه فهذا عشق لا يغفر
لصاحبه فانه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالانوبة الملاحية مادون ذلك
وعلامه هذا العشق الشركي الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه إذا تعارض
عنده حق معشوقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاء
على رضاء وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه إن بذل أردى ما عنده واستفرغ
وسعه في مرضات معشوقه وطاعته والتقرب اليه وجعل لربه إن أطاعه الفضلة التي تفضل
عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم
ضع حالهم في كفة وتوحيدهم في كفة وإيمانهم في كفة ثم زن وزنا يرضي الله ورسوله
ويطابق العدل وربما صرح العاشق بهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه
كما قال العاشق الخبيث

يترشفن من فمي رشقات * هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بان وصل معشوقه أشهى اليه من رحمة ربه فبياداك
اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال تل الشاعر

وصلك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب ان هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يصرح بانه لم سبق في قلبه
موضع اغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجه
لمعشوقه فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية المخلوق مثله فان العبودية
أي كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذلك لمعشوقه فقد أعطاه
حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الامر العظيم ومفسدة الفاحشة فان تلك ذنب
كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من
العارفين يقول لئن أبتمى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب الى من أن أبتمى فيها بعشق
يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

فصل

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف إنما إبتلى به من الداء المضاد للتوحيد أولاً ثم يأتي
من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجوء والتضرع

الى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وان يرجع بقلبه اليه وليس له دواء أنفع من الاخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فاخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه فان القلب اذا خاص وأخاص عماله لله لم يتمكن منه عشق الصور فانه انما يتمكن من قلب فارغ كما قال

أنتي هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفسدات وتقليلها فاذا عرض للماقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر عامي وأمر عملي فالعامي طاب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة فاذا تبين له الراجح وجب عليه إتيان الاصح له ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدة دينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجود أحدها الاشتغال بذكر المخلوق وحب عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا الا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون الساطان والغلبة له الثاني عذاب قلبه بمشوقه فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد كما قيل

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلوا المذاق

تراه باكياً في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق

فيكي ان ناؤا شوقاً اليهم * ويبكي ان دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب الثالث ان العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه فقلبه كالمصفورة في كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل ياهو ويامب فيعيش العاشق عيش الاسير الموثق ويعيش الحلي عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل

طليق برأي الهين وهو أسير * عليل على قطب الهلاك يدور

وميت يرى في صورة الحلي غادياً * وليس له حتى النشور نشور

أخو غمرات ضاع فيهن قلبه * فليس له حتى الممات حضور

الرابع انه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور اما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله وعشق الصور أعظم شيئاً تشعبنا وتشبتنا له وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفردت

عليه مصالح دينه وضاعت عليه فصالح دنياه أضيع وأضيع الخامس ان آفات الدنيا والآخرة أسرع الى عشاق الصور من النار في يابس الحطب وسبب ذلك ان القلب كلما قرب من العشق قوى اتصاله به بعد من الله فابعد القلوب من الله فقلوب عشاق الصور واذا بعد القلب من الله طريقته الآفات من كل ناحية فان الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبألا ولم يدع أذاً يمكنه إيصاله إليه الا أوصله فما الغان من قاب تمكن منه عدوه وأحرص الخاق على عيبه وفساده وبعده من واهيه ومن لاسعادة له ولا فلاح ولا سرور الا بقربه وولايته السادس انه اذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا يتفهمون بها واخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد بالعيان وأشرف ما في الانسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فاذا عدم عقله التحق بالبهائم بل ربما كان حال الحيوان أصاح من حاله وهل اذهب عقل مجنون ايلى وأضرابه الا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل

قلوا جننت من شهوي فقاتلهم * العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع انه ربما أفسد الحواس أو نقصها إفساداً معنوياً أو صورياً أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فان القلب اذا فسد فسدت العين والاذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعاً حبك الشيء يعمي ويصم فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ويصم أذنه عن الاصغاء الى العذل فيه فلا تسمع الاذن ذلك والرغبات تستر العيوب فان الراغب في شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل

هويتك اذعيني عليها غشاوة * فاما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبه الا من دخل فيه ثم خرج منه وهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الاسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا في الاسلام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما ينتقض عرى الاسلام عروة عروة اذا ولد في الاسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساد الحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه وربما أدى الى تافه كما هو المعروف في اخبار من قتله العشق وقد رفع الى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انحل حتى عاد جلدأ على عظم فقال ما شأن

بم تقدم هو الافراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتعطل تلك القوي فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر تغيير أفعاله وصفاته ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل

الحب أول ما يكون لحاجة * يأتي بها وتسوقه الاقدار
حتى اذا خاض الفتى لحجج الهوي * جاءت أمور لا نطاق كبار
والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل ان لم يتداركه
عناية من الله كما قيل

وعش خالياً فالحب أوله عناء * وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر

تولع بالعشق حتى عشق * فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة * فلما تمكن منها غرق
والذنب له فهو الجاني على نفسه وقد قعدت تحت انثال السائر يداك أو كيا وفوك نفخ

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء فاما مقام ابتداءه فالواجب عليه مدافعتة بكل ما يقدر عليه اذا كان الوصول الى معشوقه متعذراً قادراً وشرعاً فان عجز عن ذلك وأبى قلبه الا السفر الى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاه فعليه كتمان ذلك وأن لا يفشي به الى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فان الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله فانه يمرض المعشوق بهتكه في عشقه الي وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بادنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعين وخبر العاشق للمهتك عن المهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقين بل اذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً واقترأ على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل التقيض بل لو جمعها مكاناً واحداً اتفاقاً جزموا ان ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبهة والالوهام والاخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل لافك

(٢٠ - الدواء)

في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة
 حجي ، صفوان بن المعطل بها وحده خلف المعسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله
 سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر والمقصود ان في اظهار المبتلى
 عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه واذا ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض
 لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فان استعان عليه ممن يستميله اليه اما برغبة أو رهبة
 تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الوساطة بين الراشي والمرتشي وصار ذلك الوساطة ظالم
 وادا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد امن الرائش وهو الوساطة ديونا ظالما بين الراشي
 أو المرتشي لا يصلح الرشوة فما الظن بالديوث الوساطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرمة
 فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في نفس
 ومال أو عرض فان كثيراً ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة
 من غرضه وكم قتل ظل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبت امرأة على بعلها وجرارية
 وعبد على سيدها وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر
 الكبائر واذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وأن
 يسام على سومه فكيف بمن يسمي بالتفريق بينه وبين امرأته وأمه حتى يتصل بهما وعشاق
 الصور ومساعدوهم من الديثة لا يرون ذلك ذنباً فان في طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة
 الزوج والسيد ففي ذلك من أثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن أثم الفاحشة إن لم يربو عليها ولا
 يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فان التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له
 المطالبة به يوم القيامة فان من ظلم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أضر عليه من نفسه
 وظلم الزوج بافساد حبيته والجنابة على فراشه أعظم من ظلمه باخذ ماله كله ولهذا يؤذيه
 ذلك أعظم مما يؤذيه باخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده الاسفك دمه فياله من ظلم أعظم إن آمن
 فعل الفاحشة فان كان ذلك حقاً اعاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل
 له خذ من حسناته ما شئت كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال صلى الله عليه وسلم
 فما ظنكم أي فماتظنون تبقى له من حسناته فان انضاف الي ذلك أن يكون المظلوم جاراً أو
 ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظالماً مؤكداً لقطيعة الرحم واذي الجار ولا يدخل الجنة قاطع
 رحم ولا ين لا يأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصل معشوقه بشياطين الجن
 إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضي
 به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود
 أن التعاون في هذا الباب تعاون على الأثم والعدوان وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق

من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فامر لا يخفى فانه إذا حصل له مقصوده من المعشوق فلامعشوق أمور آخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجرد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيدته وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العاشق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبني حتى ربما يسي له في منصب لا يابق به ولا يصلح لماله في تحصيل مال من غير حله وفي استطالته على غيره فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن الا في جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً هذا الى ما ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتجسس على أخذ أموالهم والتوصل بهما الى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك وربما أدى ذلك الى قتل النفس التي حرم الله لا يأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضاعفها تنشأ من عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد نصير جماعة ممن نشأ في الاسلام بسبب العشق كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصروا وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هي نصرانية فان دخلت في ديني تزوجت بك ففعل فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له وإذا أراد النصاري أن ينصروا الا سير أرويه امرأة جميلة وأمروها أن تطعمه في نفسها حتى إذا تمكن حبا من قلبه بذات له نفسها ان دخل في دينها فهلاك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه نفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعدد الى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق إذا لم يتق الله فانه يمرض العاشق لالتام ذلك ظلم منه بان يطعمه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفسه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطرد منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره وكم للعاشق من قتل من الجانسين وكم قد زال من نعمة وأفقر من غني وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهل للرجل وولد فان المرأة إذا رأت بعلمها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقاً لنفسها

فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور الثلاث ويؤديه ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفاصد وأكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمفرط بها فإذا هلك فهو الذي أهلكها فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الأياس من ذلك لم يحدث له العشق فإن إقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فإن اطاع مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله إما خوف ديني نخوف النار وغضب الجبار واجتناب الأوزار وغاب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فإن قارنه هذا الخوف وقارنه خوف دنيوي نخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغاب هذا الخوف لداعي العشق دفعه وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق إن دفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غابت محبة المعشوق لذلك إنجذب إليه القلب بالكلية ومالت إليه النفس كل الميل فإن قيل قد ذكرت آفات العشق ومضاره ومفاسده فما لا ذكرت من منافع وفوائده التي من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وحفظها وزوال تافها ورياضتها وحمائها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي إن ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذي صيره إلى الطبع الأدمي وقال بعضهم العشق داء أفئدة الكرام وقال غيره العشق لا يصلح إلا لذي مروءة طاهرة وخليقة طاهرة أولادي لسان فاضل وإحسان كامل أو لذي أدب بارع وحسب ناصع وقال آخر العشق خان الحيان ويصفي ذهن الغبي ويسخي كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الأخلاق وهو أنيس من لأنيس له وجليس من لاجليس له وقال آخر العشق يزيل الأثقال ويلطف الروح ويصفي كدر القلب ويوجب الارتياح لأفعال الكرام كما قيل

سهلك في الدنيا شفيق عليكم * إذا غاله من حادث الحب غاله

كريم يميت المرحى كأنه * إذا استفهموه عن حديثك جاهله

يودبان يمسي سقيها لعابها * إذا سمعت عنه بشكوى ترأسه

ويهزل المعروف في طلب العلي * لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق وقال بعض الحكماء العشق بروض النفس ويهذب

الاخلاق إظهاره طبعي وإضماره تكلفي وقال الآخر من لم يتبجح نفسه بالصوت الشجي
والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج الى علاج وأنشد في ذلك المعنى
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فمالك في طيب الحياة نصيب

وقال الآخر

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فقم واعتاف بنا فانت حمار

وقال آخر

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فكن حجراً من يابس الصخر جامدا

وقال بعد العشاق أولي العفة والحيانة إذا عفوا تشرفوا وإذا عشقوا تظرفوا وقيل لبعض
العشاق ما كنت تصنع بمن تهوى لو ظفرت به فقال كنت أمتع طرفي بوجهه وأروح قلمي
بذكره وحدثه واستر منه ما أحب كشفه ولا أصير بقبیح الفعل الى ما ينقض عهده ثم أنشد

أخلوبه فأعف عنه تكراً * خوف الديانة است من عشاقه

كالماء في يد صائم ياتذ به * ظمأ فيصبر عن لذيد مذاقه

وقال أبو اسحق بن ابراهيم أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة خفيفة زهتهم

الموانسة وكلامهم يحى موات القلوب ويزيد في العقول ولو لا العشق والهوى لبطل نعم
الدنيا وقال آخر العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان أن تركته ضرك وان أكثرت
منه قتلك وفي ذلك قيل

خليبي إن الحب فيه لداذة * وفيه شقاء دائم وكروب

على ذلك ما عيش بطيب بغيره * ولا عيش إلا بالحبيب يعطيه

ولا خير في الدنيا بغير صباية * ولا في نعم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول

وهويته من قبل قطع تمنائي * متميلاً مثل القضيب الناعم

فسألها أحررة أنت أم مملوكة قالت بل مملوكة فقال تهوين فتلكأت فاقسم علمها فقالت

وأنا التي أحب الهوى بفؤادها * قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشترها من مولاها وبعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال هؤلاء

والله فتن الرجال وهم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم وجاءت جارية عثمان بن

عفان رضي الله عنه تستدعي على رجل من الانصار قال لها عثمان ما قصت لك قالت كلفت

بأمر المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان إما أن تهبا الى ابن أخيك أو أعطيك

ثمها من مالي فقال أشهدك بأمر المؤمنين إنها له ونحن لانكر فساد العشق الذي يتعلق به

مل الفاحشة بالمشوق وإنما الكلام في العشق العنيف من الرجل الظريف الذي يأتي له
بمانه ودينه وعفته ومروءته ان يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام وهذا
عشق السلف الكرام والائمة الاعلام فهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد
افتقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ولم ينكر عليه وعد ظالماً من لأمه ومن شعره

كنمت الهوى حتى أضربك الكتم * ولايك أقوام ولومهم ظلم
فم عليك الكاشحون وقباهم * عليك الهوى قدنم ما ينفع الكتم
فأصبحت كالنمري إذ مات حسرة * على أثر هنداوكن شفه سقم
تجذبت إيمان الحبيب تأمناً * ألا إن هجران الحبيب هو الأثم
فدق هجرها قد كنت تزعم أنه * رشاد ألياء ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه الجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته
مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من إمرأته ويحرص على
ان تهاله فتأبى ولم تزل الجارية في نفس عمر فاما استخفاف أمرت فاطمة بالجارية فاصبحت
وكانت مثالا في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت يا أمير المؤمنين انك كنت معجبا
بجارياتي فلانة فسألتها ان أهبالك فأبى عليك والآن فقد طابت نفسي لك بها فلما قالت
له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال عجبني بها علي فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً وقال
لها اتني ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسالك اخبريني ان كنت ومن أين صرت لفاطمة
فقال اغرم الحجاج عائلته بالكوفة مالا وكنت في ربيعة ذلك قالت فأخذني وبديني
الى عبد الملك فوهبني لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك ولدا
قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدي عليك ثيابك واذهبي الى مكانك ثم كتب الى
عامر بن علي العراق أن ابعث الى فلان بن فلان على البريد فاما قدم قال له ارفع الي جميع ما أغرمه
الحجاج لا يكف فم يرفع اليه شيئاً الا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفع اليه ثم قال له اياك
واياها ففعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هربك يا أمير المؤمنين قال لا حاجة لي بها قال فابتمها
مني قال لست اذا ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصارف قالت أين وجدك
بي يا أمير المؤمنين قال على حاله واقد زادني ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه
الله وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث
والتفسير والادب وله قول في الفقه وهو من أكابر العلماء وعشقه مشهور قال نفظويه
دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف نجدك قال حب من تعلم أورثني ماترى
فقلت وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه فقال الاستمتاع على وجهين أحسدهما

النظر المباح والآخذ اللذة المحظورة فاما النظر المباح فهو الذي أورثني ماتري وأما اللذ المحظورة بمعنى منها ما حدثني أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القنات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه من عشق وكرم وغف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة ثم أنشد

انظر الى السحر يجري من لواحقه * وانظر الى دعج في طرفه الساج
وانظر الى شعرات فوق عارضه * كأنهن نعال دب في عاج
* (ثم أنشد) *

ما لهم أنكروا سواداً بحديه * ولا ينكرون ورد العصون
انيك عيب خده بدو لشعر * فعيب العيون شعر الجفون
فقلت له نفيت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر فقال غابة الوجد وملكة الوجه النفس دعت
اليه ثم مات من آياته وسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة ومن كلامه فيه من بيأس بمن
يهواه ولم يميت من وقته سلاه وذلك ان أول روعات الناس تأتي القاب وهو غير مستعد لها
فأما الثانية تأتي القاب وقد وطأت لها البروعة والتي هو وأبو العباس بن شريح في مجلس أبي
الحسن علي بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الايلاء قال له ابن شريح أنت بأن تقول
من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه فقال الآن كان ذلك فاني أقول
أنزه في روض المحاسن مقاتي * وأمنع نفسي أن تنال محسرا
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه * يصب على الصخر الاصم تهديما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري * فلولا اختلاس وده اتصكاما
رأيت الهوى دعوى من الناس كاهم * فاست أرى وداً صحيجا مساما
فقال له أبو العباس بن شريح تفخر علي ولو شئت لقلت

مطاعمه كالشهد في نعماته * قد بت أمنعه لذيذ سناته
بصبايه وبحسنه وحديثه * وأنزه الاحفظات عن وجناته
حتى اذا ما الصبح راح عموده * ولي بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر يحفظ عليه الوزير ما أقربه حتى يقيم شاهدين على انه ولي بخاتم ربه وبراته
فقال ابن شريح يلزمي في هذا ما يلزمك في قولك

أنزه في روض المحاسن مقاتي * وأمنع نفسي أن تنال محسرا

فضحك الوزير فقال لقد جمعنا لطفاً وظرفاً ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه وجاءته
يوماً قتيماً مضمونها

يا ابن داود يافقيه العراق * إفتنا في فواتر الاحداق
هل عليها بما أتت من جناح * أم حلال لها دم العشاق

فكتب تحت البيتين بخطه

عندي جواب سائل العشاق * فاسمعه من قرح الحشا مشتاق
لما سئلت عن الهوى هيجتني * وأرقت دمعاً لم يكن مهراق
ان كان معشوقاً يمدب عاشقاً * كان الممدب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الاحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن مهدي صاحب كتاب
الانشاء وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيباً للسائل

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ * هن يلعبن في دم العشاق
ما على السيف في العدا من جناح * ان نني الحد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن * تصفح عما جنت على العشاق
انما كل من قتل شهيد * دولهنا يفني فنا وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوزاني شيخ الخطابة
في وقته رحمه الله

قل للامام أبي الخطاب مسألة * جاءت اليك وما أخل سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فخذ * لاحت مخاطرة ذات الجمال لها

فأجابه تحت سؤاله

قل للأديب الذي وافى بمسألة * سرت فؤادي لما ان أصخت لها
إن الذي فتنته عن عبادة ربه * فريدة ذات حسن فائتي واهما
إن تاب ثم قضا عنه عبادة ربه * فرحمة الله تفتي من عصي واهما

وقال عبد الله بن معمر القيسي حججبت سنة ثم دخلت مسجد المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله
عليه وسلم فيما أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر اذ سمعت أينا فأصغيت اليه فاذا هو يقول

أشجاك نوح حاتم السدر * فأهجن منك بلا بل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية * أهدت اليك وساوس الفكر
باليلة طالت على دنف * يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى لخرجوى * متوقد ككتوقد الجسر
قال بدر يشهد بانني كلف * مفرم بحب شبيهة البدر

ما كنت أحسبني أهم بجها * حتى بليت وكنت لأدري
 ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء وإذا به قد عاد البكاء والابكين ثم أنشد بقول
 أشجاك من ربا خيال زائر * والليل مسود الذوائب عاكر
 واعتاد مهجتك الهوى برشيشة * وأهتاج مقلتك الخيال الزائر
 ناديت ربا والظلام كأنه * يم تلاطم فيه موج زاخر
 والبدر يسري في السماء كأنه * ملك ترحل والنجوم عساكر
 وترى به الجوزاء ترقص في الدجى * رقص الحبيب علاء سكر طاهر
 يا ليل طلت على محب ماله * إلا الصباح مساعد وموازر
 فاجابني متحرف أنفك واعامن * إن الهوى هو الهوان الحاضر

قال وكنت ذهبت عند ابتدائه بالابيات فلم يتنبه الا وأنا عنده فرأيت شابا مقبلا شبا به قد
 خرق الدمع في خده خرقين سمات عليه فقال إجلس من أنت فقلت عبد الله بن ميمر
 القيسي قال لك حاجة قلت نعم كنت جالس في الروضة فما راعني الاصوتك فبنفسي افديك
 فما الذي تجده فقال أنا عتب بن الحباب بن انذر بن الجموح الانصاري غدوت يومالي مسجد
 الاحزاب فصليت فيه ثم اعتزات غير بعيد فاذا بنسوة قد أقبلت يتهادين مثل القطا واذا في
 وسطهن جارية بديمة الجمال كاملة الملاحظة فوقفت علي وقالت يا عتبة ما تقول في وصل من
 يطلب وصلك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولم أقف لها على أثر فأنا حيران أتقل
 من مكان الى مكان ثم انصرع وأكب مغشياً عليه ثم أفاق كأنما أصبغت وجتاه بورس
 ثم أنشد يقول

أراكم بقاي من بلاد بعيدة * فياهل تروني بالفؤاد على بعدي
 فؤادي وطرفي ناسفان عليكم * وعندكم روحي وذكركم عندي
 ولست أذ العيش حتى أراكم * ولو كنت في الفردوس جنة الخلد

فقلت يا ابن أخي تب الى ربك واستغفره من ذنبك فبين يديك هول المطلاع فقال ما أنا
 بسائل حتى يدوب العارضان لم أزل معه حتى طلع الصباح فقلت قم بنا الى مسجد الاحزاب
 فلعل الله أن يكشف كربتك فقال أرجوا ذلك ان شاء الله ببركة طاعتك فذهبنا حتى آتينا
 مسجد الاحزاب فسمعته يقول

يالارجال ليوم الاربعاء أما * ينفك يحدث لي بعد النهار طربا
 ما إن يزال غزال منه يلقني * يأتي الى مسجد الاحزاب منتقبا
 بخسر الناس إن الاجر منه * وما أنا طالب للاجر محتسبا

لو كان يبني ثوابا ما أتى صلفا * مضمخا بفتيت المسك مختضبا
م جلسنا حتى صلينا الظهر فاذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن فوقن عليه وقلن له
اعتبه ماظنك بطالبة وصلاك وكاشفة بالك قال وما بالها قان أخذها أبوها وارتحل بها الى
أرض السماوة فسئلتهم عن الجارية فقالن هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع عتبة اليهن
رأسه وقال

خيلي ريا قد أجد بكورها * وسارت الى أرض السماوة غيرها

خيلي إني قد غشيت من البكا * فهل عند غيري مقاة أستعيرها

فقلت له إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل السمر ووالله لأبذكه أملك حتى تبلغ
رضاك وفوق الرضاء فقم بنا الى مسجد الانصار فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملائمتهم
فسلمت فأحسنوا الرد فقلت أيها الملائماتقولون في عتبة وأبيه قالوا من سادات العرب قلت
فانه قد رمى بداهية من الهوي وما أريد منكم الا المساعدة الى السماوة فقلوا سمعنا وطاعة
فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا
فاستقبانا وقال حينئذ بالاكرام فقلنا وأنت فحيك الله إننا لك أضياف فقال نزلتم أكرم منزل
فنادي يامشر العبيد أنزلوا القوم ففرشت الانطاع والتمارق وذبحت الذبائح فقلنا لسنا
بذائق طعامك حتى تقضي حاجتنا فقال وما حاجتكم قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن
الحباب بن المنذر فقال إن التي تخطبونها أمرها الى نفسها وأنا أدخل أخبرها ثم دخل منفضبا
على إبنته فقالت يا أبت مالي أرى الغضب في وجهك فقال قد ورد الانصار يخطبونك مني
فقلت سادات كرام إستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لعتبة
قالت والله لقد سمعت عن عتبة هذا إنه بني بما وعد ويدرك اذا قصد فقال أقسمت
لأزوجتك إياه أبدا ولقد نمت الى بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن اذا
أقسمت فان الانصار لا يردون ردا قبيحا فأحسن لهم الرد فقال بأي شيء قالت اغاظ
عليهم المهر فانهم قوم يرجعون ولا يجيئون فقال ما أحسن ما قلت فخرج مبادرا عليهم فقال
ان فقات الحي قد أجابت ولكني أريد لها مهر مئتاها فن القائم به فقال عبد الله بن عمر
أنا فقل ماشئت فقال ألف منقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد وخمسة أكرسة من
عبر فقال عبد الله لك ذلك كله فهل أجبت قال نعم قال عبد الله فأنفذت نفرا من الانصار
الى المدينة فأتوا بجميع ماطلب ثم صنعت الوليمة فاقمنا على ذلك أياما ثم قال خذوا فقاتكم
وانصرفوا مصاحبين ثم حاهما في هودج وجهازها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه
وسرنا حتى اذا بقى بيتنا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الفارة

أحسبها من سليم فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجلا وجندل منهم آخرين ثم رجع و
 طعنة تفور دما فقط إلى الأرض وأنا نجدة فطردت الخيل عنا وقد قضى عتبة نحب
 فقلنا واعتبناه فمعتا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقه وأنشدت
 تصبرت لأيني صبرت وإني * أعالي نفسي أنها بك لاحق
 فلوا نصفت روي كانت إلى الردي * أمامك من دون البرية سابقه
 فما أحد بمدي وبعديك منصف * خيلا ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها فاحتفرنا لهما قبرا واحدا ودفناها فيه ثم رجعت إلى المدينة
 فأثقت سبع سنين ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لا آتين قبر عتبة
 أزوره فأثيت القبر فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمراء وصفرت لأرباب المنزل
 ما يقال لهذه الشجرة قالوا شجرة العروسين ولولم يكن في العشق من الرخصة
 المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد وهو حديث سويد بن سعيد بن
 علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه من عشق وعف وكنتم
 فمات فهو شهيد ورواه سويد أيضا عن ابن مسهر عن هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة
 مرفوعا ورواه الخطيب عن الأزهرى في الام عن المعافى بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل
 عن أحمد بن مسروق عنه ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبد العزيز
 ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس وهذا سيد الأولين والآخرين
 ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال
 سبحان مقلب القلوب وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه فلما هم بطلاقها قال له اتق الله
 وامسك عليك زوجك فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من
 فوق سبع سموات فكان هو وإيها وولى تزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد
 عقد نكاحها فوق عرشه وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وإذ تقول للذي أنعم الله
 عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى
 الناس والله أحق أن تخشاه وهذا داود بنى الله عليه السلام لما كان تحته تسعة وتسعين امرأة
 ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكل بها المائة قال الأزهرى أول حب كان في الإسلام حب
 النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكان مسروق يسميها حبيبة رسول رب
 العالمين صلى الله عليه وسلم وقال أبو القيس مولى عبد الله ابن عمرو أرساني عبد الله بن عمرو إلى أم
 سامة أسأها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أهلها وهو صائم فقالت لا فقال إن عائشة
 رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها وهو صائم فقالت أم سامة رضي الله

عنها إن انبي صل الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة لم يملك نفسه عنها وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعيد بن أبيه قال كان إبراهيم خليل الله يزوره جبرائيل في كل يوم من الشام على البراق من شفقه به وقلة صبره عنه وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشترى جارية رومية فكان يحبها حباً شديداً فوقت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ويقبها وكانت تكثر من أن تقول له يا بطرون أنت قالون تعني يا مولاي أنت جيد ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجداً شديداً فقال

قد كنت أحسبني قالون فأنصرفت * فاليوم أعلم إني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فمشتها فقال ذلك ما لا يملك فالجواب وبالله التوفيق إن الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلته والافالعشق من حيث هو لا يحمده ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجملها محبة من جيلة القلوب على محبته وفطرت الخليفة على تالها وبها قامت الأرض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله فإن الآله هو الذي تالها القلوب بالمحبة والاحلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لانصح الآله وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا ينفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجود وما سواه قائماً يحب تبعاً لمحبه وقد دل على وجوب محبه سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرت التي فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمته وحده لا شريك له كما قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله الآية وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العاليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعين الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله والاحمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواد قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه الآية والولاية أصلها الحب فلا موالاة الا للحب

كما ان العداوة أصابها بغض والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد أنكر على من سوي بينه وبين غيره في المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر عن سوي بينه وبين الأنداد في المحبة أنهم يقولون في النار لمبوديهم تالله ان كنا في ضلال مبين اذ نسويكم رب العالمين وبهذا التوحيد في المحبة أرسل الله سبحانه جميع رساله صلى الله عليهم وسلم وأنزل جميع كتبه وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والارض والجنة والنار فجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم انه لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين فكيف بمحبة الرب جل جلاله وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لا حتى أكون أحب اليك من نفسك أى لا تؤمن حتى تصل محبتك لي الى هذه الغاية فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولو ازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مامنه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة ما يحب العبد ويكرهه فعطاؤه ومنعه وممافاته وابتلائه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وأمانته وإحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحامه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربيه وإغاثة لطفه وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجود كل ذلك داع للقلوب الى تأاهه ومحبته بل تمكنه عبده من معصيته وإعانتة عليه وستره حتى يقضي وطره منها وكلايته وحراسته له وهو يقضي وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي الى محبته فلوان مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته بخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يحب اليه بنعمه وهو غني عنه والعبد يتبفض اليه بالمعاصي وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصد عنه معصيته ولا معصية العبد لومه يقطع إحسان ربه عنه فالأمم اللأم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب سبحانه وتعالى يريدك لك كافي الأثر الألهي عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة

وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ماسواه وأيضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يرج عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الرج والرب تعالى إنما يعاملك لترج أنت عليه أعظم الرج وأعلاء فالدرهم بعشرة أمثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسبئة بواحدة وهي أسرع شي محوا وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شي خالق لك في الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته وأيضا فمطلبك بل مطالب الخالق كلهم جميعا لديه وهو أجود الاجودين وأكرم الاكرمين ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله يشكر على القليل من العمل وينيه ويغفر الكثير من انزله ويحوه ويسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن لا يشغله سمع عن سمع ولا يغطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين بل يحب الملحين في الدعاء ويجب أن يسئل ويفض بل يسئل فيستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ويستره حيث لا يستر نفسه وبرحمه حيث لا يرحم نفسه دعاه بنعمته وإحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رساله صلى الله عليهم وسلم في طابه وبمث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألني فأعطيه من يستغفري فأغفر له ادعوك للوصول فأبى أبعت رسلي في الطلب أنزل اليك بنفسى القاك في النوم وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا يجيب الدعوات ويقبل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات وينفي اللهفات وينيل الطلبات سواء فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد وأنصر من ابتغي وأرأف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطي وأرحم من استرحم وأكرم من قصد وأعز من التجي اليه وأكفي من توكل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأشدهم حبا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الارض المهلكة اذا يأس من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ندله كل شي هالك الا وجهه لن يطاع الا باذنه ولن يعصي الا بعلمه يطاع فيشكر ويتوفيقه ونعمته أطيع ويعصي فيغفر ويعف وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفي بالعهد وأعدل قائم بالفسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصي وكتب الآثار ونسخ الآجال فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية والعلانية والفيوب لديه مكشوف وكل أحد اليه مأهوف وعتت الوجوه لنور وجهه وعجزة القلوب عن إدراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على إمتناع منله وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات استنارت له الارض والسموات وصلت عليه جميع المخلوقات لا ينام ولا ينبني له أن ينام يحفظ القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار

وعمل النهار قبل عمل الليل حجاباً للنور لو كشفه لاحتسخت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصر من خلقه ما اعتاض بأذن حبه اسواد من * عوض ولو ملك الوجود بأسره

فصل في

وهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وإبتهاج الروح تابع لأمرين أحدهما كمال المحبوب في نفسه وجماله وإنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه والأمر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار تربيته والوصول إليه على كل شيء وكل عاقل يعلم أن اللذة بمحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكل ما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل فإذة من اشتد ظمؤه بأدراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فإذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه بل هو مقصود كل حي وعاقل وإذا كانت اللذة مطلوبة في نفسها فهي تدم إذا أعقبت ألم أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وأجل فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات وتحمده إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنقضي فيها ولا تنكد بوجه ما وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال السحرة لفرعون لما آمنوا اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا الآخرة والله سبحانه وتعالى خلق الخاق ليعتد بهم وبذيل من أطاعه هذه اللذة الدائمة في دار الخلد وأما الدنيا فنقطعة ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين مع الخلود أبداً فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار فاخبرهم إن الدنيا متاع لا يستمتع بها إلى غيرها وإن الآخرة هي المستقر وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يدم تناولها بل يحمد لحسب إيصالها إلى لذة الآخرة إذا عرف فاعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وفي حديث آخر إنه إذا نبجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم وفي النسائي ومسنده الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله

عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم في دعائه واستلثك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وفي كتاب السنة لعبد الله بن الامام أحمد مرفوعا كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك فاذا عرف هذا فاعظم الاسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الغاية اليه كنفاته في بحر فان الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فاطيب ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته والذما في الجنة رؤيته ومشاهدته فحبه ومعرفته قررة العيون ولذة الارواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها من اللذة القاطمة عن ذلك تنقلب الآما وعذابا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الا بالله وكان بعض المحيين تمر به أوقات فيقول إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم انى عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجدونا عليه بالسيوف وإذا كان صاحب المحبة الباطنة التي هي عذاب على قاب المحب يقول في حاله

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى * فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول الآخر

أف للدنيا متى ما لم يكن * صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخر

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها * وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر

أسكن الى سكن تلذ بجهه * ونهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر

تشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت ما يتقون من بينهم وحدي

فكانت لقاى لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الارواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة الا بها وإذا فقدتها القلب كان المه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والانف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب إذا خلى بين محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى منه الروح وهذا الامر لا يصدق به الا من فيه حياة وما لجرح ميت ايلام والمقصود إن أعظم لذات الدنيا هي السبب الموصل الى أعظم لذة في الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فاعظمها وأكملها ما أوصل الى

لذة الآخرة ويثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لغير عدو الله وعدوه فكيف بلذة ايمانه ومعرفة الله ومحبه له وشوقه الى لقائه وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم النوع الثاني لذة تمتع لذة الآخرة وتعقب الآما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أو نانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا الآية الى قوله يكسبون ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبنى في الارض والعلو بغير الحق وهذا اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعام لذيذ مسموم يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون الآية الى قوله إن كيدي متين قال بعض الساف في تفسيرها كل ما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون الآية الى قوله والحمد لله رب العالمين وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة يحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال في حتمهم فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل

يارب كائنة في الحياة لاهاها * عذابا فصارت في المعاد عذابا

النوع الثالث لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا إنما يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كمالها وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولا بد أن يشتغل عما هو خير وأنفع منها وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله كل طويها هو به الرجل فهو باطل الارمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق فإعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ومالم يعن عايبها فهو باطل

فصل في

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما تعني بالمحبة الخاصة وهي التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبهه والا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوت لا يحصيه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرها ما بينهما فهذه المحبة هي التي تلتطف وتخفف أفعال التكليف وتسخر

(۲۲ - الدواء)

البخيل وتشجع الحيان وتصفي الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة
الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل
سبق لكم في مضمرة القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر ونحيي القلب وكذلك محبة كلام الله
فانه من علامة حب الله واذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة
القرآن من قلبك وإلتذاذك سماعه أعظم من إلتذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم
فانه من المعلوم أن من أحب حبيبا كان كلامه وحديثه أحب شيئا إليه كما قيل
ان كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي * أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله وكيف يشبع
المحب من كلام من هو غاية مطلوبه وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لعبد الله بن مسعود
رضي الله عنه اقرأ علي فقال اقرأ عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمعه من غيري
فاستفتح فقرا سورة النساء حتى إذا بلغ قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا
بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك الآن فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم تذر فان من البكاء وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون يا أبا موسى
اقرأ علينا فيقرأوهم يستمعون فامحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور
أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجدته وطربه وشوقه سماعه
الآيات دون سماع الآيات في سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل

نقرأ عليك الحتمة وأنت جامد كالخجر * وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان
والمغرور يعتقد انه على شيء في محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف
أضعاف ما ذكر السائل من فوائد الشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه وكل
حب سوى ذلك باطل ان لم يعن عليه ويسوق المحب إليه

فصل في

واما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله وقد من الله سبحانه بها على
عباده فقال ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة
ورحمة الآية فجعل المرأة سكنا للرجل يسكن إليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وطهر
المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحصل لنا من النساء وما حرم منهن

یرید اللہ لیبینکم ویهدیکم سنن الذین من قبلکم ویتوب علیکم واللہ علیم حکیم الی
 قوله خلق الانسان ضعيفاً وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن ابيه كان
 اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم
 انه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر
 في صورة شيطان فاذا رأى أحدكم امرأة فاعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد ما في نفسه
 ففي هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام
 مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الامر بمداوات الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها
 بانفع الادوية وهو قضاء وطرد من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين
 الى التكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعاً لم ير للمتحابين مثل التكاح ونكاحه لمعشوقه
 هودواء العشق الذي جعله الله داءً شرعاً وقدرأوبه تداوي نبي الله داود صلى الله عليه
 وسلم ولم يرتكب نبي الله محرمات وانما تزوج المرأة وضمها الى نساءه لمحبتة لها وكانت توبته
 بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت
 جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله صلى الله عليه
 وسلم في فراقها وهو يأمره بما ساء كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيفارقها
 ولا بد فاختفى في نفسه ان يتزوجها اذا فارقها زيد وخشى مقالة الناس ان رسول الله صلى
 الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبني زيد قبل النبوة والرب تعالى يريد ان
 يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده فاما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله اليها يخطبها
 لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت في صدره لما ذكره رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فناداها من وراء الباب يا زينب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك فقالت
 ما انا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي وقامت الى محرابها فصارت تقولى الله عز وجل نكاحها
 من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه وعقد التكاح له من فوق عرشه وجاء الوحي بذلك
 فاما قضى زيد منها وطرأ زوجها كما فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عاها فكانت
 تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول أنتن زوجتكن أهليكن وزوجني الله عز وجل
 من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب ولاريب ان النبي صلى الله
 عليه وسلم حب اليه النساء كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه والطبراني
 في الاوسط عنه صلى الله عليه وسلم قال حب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت
 قرّة عيني في الصلاة هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم حب الي من دنياكم ثلاث
 زاد الامام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر

عنهن وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا ما هم إلا النكاح فرد الله سبحانه
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وناجح عنه فقال أم يحسدون الناس على ما آتاهم
 الله من فضله الآية وهذا خايل الله إمام الخلفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين
 وأحب هاجر وتسرى بها وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة
 فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في
 الليلة على تسعين امرأة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه
 فقال عائشة رضي الله عنها وقال عن خديجة إني رزقت حبها فحبة النساء من كمال الانسان
 قال ابن عباس خير هذه الامة أكثرهم نساء وقد ذكر الامام أحمد ان عبد الله بن عمر
 وقع في سهمه يوم حلولا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها ان قلبها
 والناس ينظرون الي وبهذا احتج الامام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسيبة قبل الاستبراء
 بغير الوطء بخلاف الامة المشتركة والفرق بينهما انه لايتوهم انفساخ الملك في المسيبة بخلاف
 المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمعا بأمة غيره وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم
 لعاشق أن يواصه معشوقه بان يتزوج به فأبت وذلك في قصة مغيث وبريرة فانه رأى يمشي
 خافها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو
 راجعته فقالت أنا أمرني قال لا إنما أشفع فقالت لا حاجة لي به فقال لعنه يا عباس ألا تعجب
 من حب مغيث وبريرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وان كانت قد باتت منه فان هذا
 ما لا يملكه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساوي بين نساءه بالقسم ويقول اللهم هذا قومي
 فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك يعني في الحب وقد قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا
 بين النساء ولو حرصتم يعني في الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدين
 الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الحائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر
 وعثمان وكذلك علي أتى بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له ما قصتك قال
 لست يسارق ولكني أصدقك

تعلقت في دار الرباحي خريده * يذل لها من حسن منظرها البدو
 لها في بنات الروم حسن ومنظر * اذا اقتخرت بالحسن عاتقها الفخر
 فلما طرقت الدار من حب مهجتي * أتيت وفيها من يوقدها الحجر
 تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا * هو اللص محنوم له القتل والأسر

فاما سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله رقيه وقال للمهلبين وبلغ إسبع
 فقال يا أمير المؤمنين سله من هو فقال النهاس بن عيينة فقال خذها فهي لك واشتري سارق

جارية فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها
 وفارقه كالغصن يهتز في الثرى * طريراً وسياً بعد ما طر شاربه
 فسألها فأخبرته أنها تحب سيدها فردها إليه وفي قلبه منها وذكر الزمخشري في ربيعته ان
 زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط
 أما في عباد الله أو في إمامته * كريم مجلى الهم عن ذاهل العقل
 له مقالة إمام الماء في قريحة * وأما الحشاشا فالنار منه على رجل
 فنذرت ان تحتال لقائهما ان عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه فينبأ هي في المزدانة اذ
 سمعت من يندد البيتين فطلبته فزعم انه قالها في ابنة عمه له نذر أهلها ان لا يزوجوها منه
 فوجهت الى الحي وما زالت تبذل لهم المال حتى تزوجوها منه واذا المرأة أعشق منه لها
 فكانت تعده من أعظم حسناتها فتقول ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك النبي
 والفتاة وقال الخرائطي وكان سليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحبان فكتب
 الغلام لها يوماً

ولقد رأيتك في المنام كأنما * أسقيتني من ماء فيك البارد
 وكأن كفك في يدي وكأننا * بتنا جميعاً في فراش واحد
 فطفقت نومي كماه متراقداً * لأراك في نومي ولست براقداً

فأجابته الجارية

خيراً رأيت وكما أبصرته * ستناله مني برغم الخاسد
 إني لأرجو أن تكون معانتي * وتبيت مني فوق ندي ناهد
 وأراك بين خلاخى ودماحي * وأراك فوق ترائي ومحاشدي

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيرته وقال جامع
 ابن مرجيه سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل من حب درهما من وزر فقال سعيد
 انما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ما سألتني أحد عن هذا ولو سألتني ما كنت
 أجيب إلا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قرينة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته
 وجاريته وهذا المشق نافع فانه أدعي الى المقاصد التي شرع الله لها النكاح وأكف للبصر
 والقاب عن التطلع الى غير أهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشق
 هو مقت عند الله وبعد من رحمته وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه وهو عشق
 المزدان فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرده عن بابه وأبعد قلبه عنه وهو من
 أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه

بمحبة المردان وهذه المحبة هي التي جابت على قوم لوط ماجلبت وما أوتوا من هذا العشق
قال الله تعالى لعمر ك انهم اني سكرتهم يعمهون ودواء هذا الداء الردي الاسماناة بقلب القلوب
وصدق اليجا اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالالم الذي يعقبه هذا
العشق واللذة التي تقوته به فترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه فاذا قدمت
نفسه على هذا وآثرته فايكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به وانقسم
الثالث من العشق المباح الذي لا يملك كعشق من صورت له امرأة جنية أو رآها فجأة
من غير قصد فأورثته ذلك عشق لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا
يعاقب عليه والانفع له مدافعتة والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا أن يكتم
ويصبر ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترت طاعته هواه
وإشار مرضاة الله وما عنده

فصل في

والعشاق ثلاثة أقسام منهم من يعشق الجمال المطلق ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء
طمع بوصاله أو لم يطمع ومنهم من لا يعشق الا من طمع لوصاله وبين هذه الانواع الثلاثة
تفاوت في القوة والضعف فعاشق الجمال المطلق بهم قلبه في كل وادوله في كل سورة
جنية مراد

فيوما بحزوى ويوم بالعقيق * وبالغديب يوماً ويوما بالحياصاء

وتارة ينتحي بنجد واودية شـبـب العقيق وطورا قصر أيما

فهذا عشقه أوسع ولكنه غير ثابت كثير التقل

بهم بهذا ثم يعشق غيره * ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه وأدوم محبة له ومحبه أقوى من محبة الاول لاجتماعهما
في واحد ويقسم الاول والسكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال وعاشق الجمال الذي يطمع
في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحبه أقوى لان الطمع يمدد ويقويه

فصل في

وأما حديث من عشق وعف فهذا من يرويهِ سويد بن سعيد وقد أنكره حفاظ الحديث
عليه قال ابن عدي في كامله هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد وكذلك ذكره
وابن طاهر في الزخيرة والتذكرة وأبو الفرج بن الجوزي وعنده من الموضوعات

أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والتصواب في الحديث أنه من كلام
ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه فقاط سويد في رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان
حديثاً أبو بكر بن الأرزق عن سويد فعاتبته على ذلك فاقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم
وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن
الزهري حدثنا المعافين زكريا حدثنا قطبة بن الفضل حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق
حدثنا سويد حدثنا ابن مسهر عن هشام بن عمرو عن أبيه عن عائشة مرفوعاً من أبيه
الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن أبيه عن عائشة مثل هذا عنه من شمس أدني راحة
من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قط ولا حدث به عنها عمرو ولا حدث به عنه هشام قط وأما حديث ابن الماجشون
عن عبد الله بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً فكذب
على ابن الماجشون فإنه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وإنما هذا من تركيب
بعض الواضعين وبإسبحان الله كيف يحتمل هذا الإسناد مثل هذا المتن فقيح الله الواضعين
وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن
ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً وهذا غلط قبيح فإن محمد بن
جعفر هذا هو الخرائطي ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فحال أن يدرك شيخه يعقوب
ابن أبي نجيح لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن
عبد العزيز عن ابن أبي نجيح والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ذكره أبو الفرج
في كتاب الضعفاء وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان واليه يرجع في
هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ويرجع في الصحيح
إليه ولا من عادته التساهل والتساج فإنه لم يصف نفسه له ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل
في أحاديث التعوف ويروي منها الفث والسعين والمنخنة والموقوذة قد أنكره وحكم
ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن
البيت عشقاً فقال قتل الهوي لأعقل ولا قودور رفع إليه بعرفات شاب قد صار كافراً فقال
ما شأنه فقال العشق جميل عامة يومه يستعيد من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف
وكم ومات فهو شهيد وما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عد الشهداء في الصحيح
فذكر المقتول في الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتل أولادها والفريق وصاحب الهدم
فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتل العشق أن يصح له بهذا الأثر عن ابن
عباس رضي الله عنهما على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكفر لله وهذا لا يكون

إلا مع قدرته على معشوقه وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخول محبة
قوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى فإن الجنة هي المأوى ونحت قوله تعالى ولمن
خاف مقام ربه جنتان فتنسأل الله العظيم
رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر
واشفي حبه ورضاه على هواه
بذلك قربه ورضاه آمين يا رب
العالمين وصلي الله على
محمد وآله وصحبه
أجمعين
آمين



